جوڤانّي ڤيرغا

العَيشُ في فلسطين

مشاهدات محايدة لصحفي إيطالي

Telegram:@mbooks90

مع ملحق
صورٍ فوتوغرافيَّة

ترجمة: دلال نصرالله

منشورات تكوين | تساؤلات
TAKWEEN PUBLISHING

الكاتب: جوڤانّي ڤيرغا

عنوان الكتاب: العَيشُ في فلسطين: مشاهدات محايدة لصحفي إيطالي مع ملحق صورٍ فوتوغرافيّة

ترجمة: دلال نصر الله

العنوان باللغة الأصلية: Vivere in Palestina tra tablet, muri, Bibbia e Corano

الكاتب: Giovanni Verga

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-31-0

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024

1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

© "Vivere in Palestina tra tablet, muri, Bibbia e Corano"

- Giovanni Verga - Infinito edizioni 2013 -

All right reserved - Tutti i diritti riservati

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com — takweenkw

takween_publishing — TakweenPH

www.takweenkw.com

إلى غسان كنفاني؛

كاتبًا فلسطينيًا عظيمًا وخالدًا.

مقدمة الطبعة العربية

كتابٌ آخر عن فلسطين. بعد ٧٥ سنة من الحرب التي أدت إلى قيام «إسرائيل»، وبعد مرور أكثر من ٥٥ سنة على حرب الأيام الستة؛ وسبع وثلاثين سنة على الانتفاضة الأولى، وعشرين سنة على الانتفاضة الثانية؛ وبداية بناء الجدار العازل على وجه الخصوص. ألم يُقَل كلُّ شيء؟ ليس بعدُ، لا يزال ثمّة الكثير لنقوله. في وقتنا هذا أكثر من أيّ وقت مضى، ولكن بأسلوبٍ مختلف. دعونا نبدأ من الجدار الذي قيل الكثير عن تبعاته السّياسية والاجتماعية والأسريّة والنّفسية، ولم يُقَل الكثير عن تبعاته الاقتصادية التي كانت الأشدّ خطورةً في الواقع؛ لأنّها قوّضت الاقتصاد الفلسطيني الهشّ أصلًا آنذاك، وكادت أن تقضي عليه مصاعبُ جمّة بسبب عرقلة نقل الأشخاص والبضائع. أمّا في يومنا هذا، فتحتل مشكلات أخرى وأكثر خطورة صفحات الجرائد الرّئيسة، وقنوات التّلفاز العالميّة الكبرى. اليومَ، عادت «قضيّة كل القضايا» بالنّسبة إلى العالم العربي؛ القضيّة الفلسطينية، فجأةً، وبشكل مُروِّع إلى مركز الاهتمام العالمي بسبب التّطهير العرقيّ الذي يتعرّض له سكّان قطاع غزّة. نُسِيَ الجدارُ العازل. بيد أنّ لا بدّ من البحث عن أسباب الوضع الرّاهن عنده. لقد قضى قرار بناء الجدار العازل على أي إمكانيّة للحوار، كما أدّى أيضًا إلى خلق قطيعة نهائيّة بين الشّعبين. في تلك اللّحظة تحديدًا، نشأ الفصل العُنصري مع الشعب الفلسطيني، وتزايدَ إدراك الأجيال اللّاحقة بعدم وجود خيار: إمّا الرّحيل أو المقاومة بالسّلاح.

Telegram:@mbooks90

هذا الكتاب ليس كتابًا معتادًا عن ظروف أهل غزّة المعيشيّة المُحزنة؛ بل هو رحلة في نطاق الجِدار لفهمهم، ومنح صوتٍ لأبطاله. أناس عاديُّون، فلسطينيون مسلمون ومسيحيُّون، ولكنّه يتطرّق أيضًا لـ«الإسرائيليين» المقيمين في المستوطنات على سبيل المثال، لأنّهم الأكثر إشكاليّة وإثارةً للتّساؤلات؛ وتبيّن أنّهم يختلفون عمّا يروّجه إعلامهم عنهم. ماذا عن العرب الفلسطينيين؟ كم شخصًا منّا يعرف أولئك الذين عاشوا على هذه الأرض لألفي عام تقريبًا، وما هي هُويتهم وثقافتهم؟ لقد همّشت هذه الحرب المستمرّة ذكراهم، رغم أنّ لثقافتهم تاريخ قديم، ومكانة رفيعة في الأدب والشّعر تحديدًا.

من المثير للاهتمام مقارنة الشُعراء الفلسطينيين بالشُعراء العرب في صقلية؛ ربما لم يفكّر أحدٌ في ذلك، ولكن هنالك نقاط مشتركة عديدة. نَفى الغزو النورماندي عرب صقلية عن أرضهم. لحظة فارقة غيّرت موضوعات قصائدهم من العشق إلى آلام المنفى والحنين إلى الأرض الحبيبة المفقودة. وبعد أكثر من ألف عام، تعرّض عربٌ آخرون، العرب الفلسطينيون، إلى الأمر نفسهِ؛ فأقحموا تباريح المنفى في صميم شِعرهم، وأزيحت باقي الموضوعات الشعريّة المعهودة في سالف العصور كالقصص المستلهمة من **ألف ليلة وليلة**. كما نسينا وجود إسلام معتدل قبل الجدار، وانتشار الموسيقى والدّبكة التي تهز الأرض هزًا، وتُرقص في المناسبات السّعيدة: كالأعراس والولادات وأيام الحصاد. رقصة رمزيّة تحمل بين حركاتها تأكيدًا على الهُويّة الفلسطينيّة. تضمُّ جميع مخيّمات اللّاجئين الكُبرى مراكزَ ثقافية تُدرّس وتعرض أعمالهم الدراميّة وقصصهم الشّعبيّة من خلال عروض مسرحيّة. يمتلك الشّعب الفلسطيني ثقافة أصيلة وعميقة عمرها آلاف الأعوام، وهو مُتشبّثٌ بها ورافض للتّخلي عنها؛ ثقافة جذورها راسخة في أرض فلسطين؛ وهذا سبب رفضه لمغادرتها.

أرمي في هذا الكتاب إلى استكشاف الشّعب الفلسطيني وجذوره والتعرف إليه، والسّماح له بسرد قصّته بنفسهِ. سيشرحُ الفلسطينيّون لنا ضنك معيشتهم في مناطق خاضعة لإدارة الكيان الأوحد في فلسطين؛ «إسرائيل» التي تتمتع بالحقّ في تحديد حقوق وواجبات الجميع. انقلبت الحياة في غزّة رأسًا على عقب حرفيًا بعد مرور أكثر من عقدين على بناء الجدارِ، لكنّي أريد استعراض الصُورة كما رأيتها بأم عيني بمنأى عن التّنميطات التي نسمعها من وسائل الإعلام، ومن التحليلات الجيوسياسية، ومن ردود أفعال المعلّقين والسياسيين الفوريّة بعد الحرب؛ لأنّها متكررة، وغير موضوعيّة معظم الأحيان. اكتشفتُ وجود أشياء غير معروفة، كالازدياد المُطّرد في عدد الشّباب العرب الملتحقين بالجامعات، وأغلبهم من الفتيات المسلمات، وأنّ هؤلاء الشّباب يسافرون إلى الخارج -إلى أوروبا وأمريكا الشّمالية -لاكتساب الخبرة العمليّة ثم يعودون إلى العمل في وطنهم. يوظّفون ما تعلّموه بشكل جيّدٍ لخدمة بلدهم المحتلّ الذي لا وجود له في القانون الدّولي. اتّضح لي أنه في المجال العلمي، وخاصة في مجال تكنولوجيا المعلومات، وجود خريجين شباب - مهندسون

ومطورون ومبرمجون - يتخرّجون في الجامعات ويؤسّسون شركات لدخول السّوق بمنتجات تكنولوجيّةً متقدّمة، وأنّه في مدينة رام الله الإسلاميّة، العاصمة الاقتصادية والسّياسية والإدارية لفلسطين، يُحتفل كلّ عامٍ بالثّامن من مارس.

علاوةً على ذلك، فإنّ نقد العرب المسيحيين لا يقل عن نقد المسلمين لحكومة تل أبيب. إنّ الانتهاكات والتمييز الذي يتعرضون له من خلال القوانين القمعيّة والبيروقراطية الاستبداديّة المتعمّدة قد وحّد نضالهم مع المسلمين. ومع ذلك، لا بد من الإشارة إلى أنّ المسيحيين والمسلمين العرب كانوا يعيشون في وفاق كامل في الماضي، وهذا الوفاق يقلّ شيئًا فشيئًا. لقد أدّتِ البطالة والرّكود السياسي ومفاوضات السّلام إلى تفاقم مشاعر الاستياء والصّراعات بين الشعبين المتنازعين، حتى أنّ الأطراف الفلسطينية (واليهودية أيضًا) الأكثر تطرفًا قد اكتسبت تأثيرًا تدريجيًا، ممّا أثّرَ بعمق على العلاقات بين العرب و«الإسرائيليين»؛ بل وبين العرب أنفسهم، ومن ثمّ فإنّ الأقلية المسيحية باتت تدفع الثّمن أيضًا، وغدت هدفًا للتّعصّب في الآونة الأخيرة، وأُجبرت على التّزوج الجماعي من أراضيها، ومن المؤكّد أنّ القرآن يأخذ مكان الإنجيل في الأراضي المقدسة.

أتطرّق في آخر فصلٍ للّاجئين؛ وهم السّواد الأعظم من الفلسطينيين. فاقم بناءُ الجدار من فقرهم، وأُغلِقت بوجوههم أبواب العمل في «إسرائيل»، حيث كانوا يكسبون أرزاقهم في السّابق. إنّ القدرة الاستيعابيّة لأقدم مخيمات اللّاجئين في العالم على المحكّ. يمنح هذا الكتاب سكّان المخيّمات صوتًا أيضًا.

المؤلّف

LIBANO
SIRIA
mar Mediterraneo
Striscia di Gaza
ISRAELE
EGITTO
Deserto del Negev
GIORDANIA
mar Morto

الفصل الأوّل
رجالٌ في الشّمس

ذكرتُ صقليّة والأسى

يهيج للنّفس تذكارها

ومنزلة للصّبا قد خلت

وكان بنو الظّرف عُمّارها

فإن كنت قد أخرجت من جنّة

فإنّي أحدّث أخبارها

ولولا ملوحةُ ماء البكاء

حسبت دموعي أنهارها

ضحكتُ ابن عشرين من صبوة

بكيتُ ابن ستّين أوزارها

فلا تعظمنّ عليك الذّنوب

إذا كان ربُّك غفّارها

ابن حمديس

في بوادي النّفي ربيعًا تلوَ ربيعِ

ما الذي فاعلون نحن بحُبنا

وملء عيوننا الآنَ ترابٌ وصقيع؟

***

أرضُنا فلسطين خضراؤنا

كالرّسم على بُرُد النّساء أزهارُها

***

آي أرضَنا، حيث صِبانا قد تقضّى

حُلقًا في ظلال البرتقال

بين لوزات الوهاد

اذكرينا الآن مطوّفين

بين أشواك القفار

مطوّفين في ضُمّ الجبال

جبرا إبراهيم جبرا

من قصيدة (في بوادي النّفي)

لأكثر من عشرة قرونٍ، لم يكن للشّعر العربي مثيلٌ في أغراض الحب. ربما لم يبلغ أحدٌ، بعد سافو واليونانيينَ، ذروةَ الشّعر كما فعلَوا. وقد نبعث أهميّة الشّعر، في العالم العربي، من مكانته الرّفيعة التي تمتّع بها خلال فترةٍ ما قبل الإسلام. روى بدو الصّحراء قصصهم شعرًا، واستذكروا الشّخصيات والحوادث والأماكن، فكان الشّاعرُ هو المترجم لمشاعر وقيمِ القبيلة.

في القرن الثاني عشر، في الفترة التي قدّم فيها العرب إسهاماتٌ كبيرة في الطب والهندسة المعمارية والفن والفَلك في صقليّة، نظَمَ «عبدالجبّار بن حمديسَ» أحدُ أشهر شعراء صقليّة، إنْ لم يكن أشهرهم، ديوانًا ضمَّ أكثر من ستة آلاف بيتٍ في ٣٦٠ قصيدةً.

تتنوّع الموضوعات التي يضمُّها الدّيوان بين دفّتيه: تبدأ من توصيفٍ لتفاصيل الحياة اليوميّة ومديح للأشراف الأمراء المستضافين في بلاطهم، وحتّى ألم المنفى. تعرَّض ابن حمديس للنّفي؛ إذْ هُجّر من موطنه الحبيب، إمارة صقليّة، بلدة «نوتو» تحديدًا (سرقوسة أو سيراكوز) ولم يعد إليها قطُّ. فرَّ إلى الأندلس، ثمَّ إلى الجزائر، فتونسَ، بعد أن حارب النّورمانديين الذين كانوا على وشك احتلال الجزيرةِ؛ وهكذا ارتبط موضوع المنفى المرير والموجع في شِعره، بموضوعات الحبّ والحياة في البلاط، لكنَّ قصائده التي يتطرقُ فيها إلى الأماكن المفقودة مؤثرة ورائعة.

المنفى والوطن المفقود، وقبلهما الحب وتمجيد الجَمال الأنثوي ولذّة النّبيذ، هي موضوعات قصائده السّاحرة التي سردَها بأسلوبٍ يتماشى مع أسلوب أسلافه تمامًا. له قصيدة أخرى بعنوان (طيب المرأة) مفعمةٌ بالحب والتّغزل بالأنثى. نحن نعلم أنَّ فرانشيسكو بتراركا قد كتبَ أيضًا قصيدةً مشهورة جدًّا بعد بضعة قرون، لكن لا وجه للمقارنة بين القصيدة الأولى والثّانية من حيث العاطفة والشّهوانية والاحتفاء بالحُبِّ الجسدي. يقول عبدُالجبّار ابنُ حمديس:

وطيِّبة الأنفاس تحسبُ وصلها

وَمَنْ واصلته جنّة المُتنعّم

تَفتَّحَ وردُ الخدِّ في غصن قدِّها

ونَوَّرَ فيه أقحوان التَّبسُّم

كأنَّ استماعَ اللَّفظ منها تعلُّلٌ

بلذَّة راحٍ واقتراحِ ترنُّم

تُحدِّثني بالسِّر في ثني ساعدي

فيسمع نجوى السِّر من فمِها فمي

إذا ما الثُّريَّا رَحَّل اللَّيلُ شملَه

لها في يدِ الإصباح باقةُ أنجم

وجدتُ ثناياها العِذابَ كأنَّما

تُعلُّ بمسكٍ في رحيقٍ مُختَّم

يصعبُ العثور على مثل هذا المزيج الذي يجمع بين الشَّغف بالحياة وأفراحها والنِّساء والحب من ناحية، والمَنفى المرير الذي أُجبر عليه طوال حياته تقريبًا من ناحية أخرى.

وراءك يا بحر لي جنَّة

لبستُ النَّعيم بها لا الشَّقاءَ

إذا أنا حاولتُ منها صباحًا

تعرضتَ من دونها لي مساءَ

فلو أنَّني كنت أُعطى المُنى

إذا منع البحرُ منها اللقاءَ

ركبتُ الهلالَ به زورقًا

إلى أنْ أعانق فيها ذُكاءَ

ومثل ابن حمديسَ، كانَ أبو الحسن علي بن عبدالرَّحمن بن أبي البشائر الصِّقليّ - الذي يُعرف أيضًا باسم: علي أبوالحسن البَلَنوبيّ (ابن أبي البشر الصِّقليّ)- وهو أحدُ أعظم شعراءِ العربيةِ الصقليُّونَ، قد اضطرَّ إلى الفرارِ من وطنه بعد الغزو النُّورماندي. لجأ إلى إشبيلية في بلاط المعتمد(1)، حتَّى أنَّه تبعه عندما رُحِّلَ أسيرًا إلى إفريقيا عقبَ انتصار المرابطين. وقد توفي البَلنوبيّ طاعنًا في السِّن مطلعَ القرن الثاني عشر. كان شاعرَ الحُبِّ العظيم بلا منازع:

ولمَّا رأيت الحبَّ يُعدي من الهوى

كتمتك ما ألقاه من ألمِ الحبِ

وصُنتك في إنسان عيني فمذ بكتْ

جعلتك والتَّوحيد في حبَّة القلب

ولو قلت لي لا تشرب الماء لم أرِد

عليه ولم أشتقْ إلى البارد العذب

فما لك تلقاني بصدٍّ وإنَّما

تُواصلني بالشَّوق في أسطُر الكتب.

ومثل ابن حمديسَ، أُبعِد البَلنوبيّ مُكرهًا عن صِقليَّة طوالَ حياته، وسَطَّرتْ أبياتُه جمالَ حنينهِ واعتزازَهُ بوطنه. حتَّى الشِّعر الفلسطينيّ، مثل كل الشِّعر العربي، يحتفي بموضوعات الصَّداقة والروحانية والطبيعة؛ وشِعر الحب الممتاز خاصةً. لكن، لهؤلاء الشعراء الفلسطينيين ما يميِّزهم عن الشُّعراء العرب الآخرين. لقد مرُّوا بما مرَّ به الشَّاعرانِ الصِّقليّانِ، ابن حمديس وأبو الحسن البَلنوبي؛ إنهم بلا وطن. وبما أنَّ غياب الوطن حدثٌ جوهريٌّ في الذَّاكرة الجمعيَّة، فمن الطبيعيّ أنْ يتكرَّر هذا الموضوع في قصائدهم، وبتفرُّدٍ. خلقَ شِعرُ المنفى الفلسطينيّ حالةً نادرة في العالم الشِّعري نتيجة حجمه وطول مدته. جنسٌ شِعري توجِّهُه الذَّاكرةُ الجمعيَّةُ التي وجهَّها

بدوره.

هاجرت الشّاعرة سلافة حجّاوي شأنها شأن شعراء كثر؛ إذ انتقلت من بلدتها نابلس لتعيش في بغدادَ مع زوجها الشّاعر العراقي، كاظم جواد. تقولُ في قصيدة (حكم إعدام(2)):

الأوامرُ تصدرُ للجنود بقتل قرية (زيتا)

(زيتا) عروس الحقول والفلّاحين

(زيتا) شَرارة الثّورة

أبناءُ القرية يخرجونَ للتّصدي لجُند الاحتلال

الجنود يأمرونَ سكّان القرية بمغادرتها

الرِّجال يرفضونَ ويتصدّون ويُستشهدون

الجنود يقتحمون (زيتا) ويدمّرونها

(زيتا) تشعل الثّورة وتعود إلى الوجود

من ليل (زيتا) ينبثقُ الصّباح.

أبدعَ أحد المؤرخينَ حين قالَ: إنّ هؤلاء الشُّعراء مثل الآخرينَ «يستيقظون كلَّ صباحٍ ويقرؤون الجريدة»، وفي تلك الصّحيفة هناك يوميًّا أخبارٌ عن صِدامات، وفقدانٍ للمنازل، وتهجيرٍ. ما يحدثُ للشّعراء الفلسطينيين كان قد حدث للشُّعراء العرب الصّقليّينَ حين أُجبروا على مغادرة أراضيهم. هذا الشّعر الذي ترجعُ جذورُهُ إلى تراثٍ أدبيٍّ عربي عظيمٍ ومُفعم بالحبّ، وغارقٍ بالمرارة أيضًا، وبالمآسي الإنسانيّة والسياسيّة؛ ممّا أنتجَ أدبًا لا مثيلَ له. مزيجٌ مؤثّر في النّفس وموجعٌ بعاطفةٍ جيّاشةٍ. تأمّل معي السّير الذاتية لعدد من الشُّعراء الفلسطينيين:

سميح القاسم(3): نشأ في النّاصرة وارتاد مدرسةً فيها. أُرغمت عائلته على الفرار بعد نكبة ١٩٤٨. عملَ مُدرّسًا في مَدرسة حكوميّةٍ «إسرائيليّةٍ»، لكنه استقال لأسباب

سياسيّة وأيديولوجيّة. تعرّض للسّجن ووُضع تحتَ الإقامة الجبريّة عدّة مرّاتٍ بسببِ شِعره وأفكاره السّياسيّة.

محمود درويش: أشهر شعراء فلسطين بلا منازع. تُوفي سنة ٢٠٠٨ بعد جراحة قلبيّة في هيوستن الأمريكية. رمزٌ شِبه مقدّس عند الفلسطينيين، ويُعتبر أبرز شُعراء المنفى، والأكثر حضورًا. يحتفي في قصائده بأهميةِ وعَظَمة الشّعرِ، ومن بين أجمل قصائده تلك التي يخاطبُ فيها أبناءَ شعبهِ:

إلى الأعلى

حناجرنا

إلى الأعلى

محاجرنا

إلى الأعلى

أمانينا

إلى الأعلى

أغانينا

سنصنع من مشانقنا

ومن صلبان حاضرنا وماضينا

سلالم للغد الموعود

ثمّ نصيحُ يا رضوان!

افتح بابك الموصود!

سنطلق من حناجزنا

ومن شكوى مراثينا

قصائدَ كالنَّبيذ الحلو

تكرع في ملاهينا

وتُنشد في الشَّوارع

في المصانع

في المحاجر

في المزارع

في نواديناا!

سننصب من محاجرنا

مراصدَ تكشف الأبعد والأعمق والأروغ

فلا نقشغ

سوى الفجر

ولا نسمع

سوى النَّصر

فكل تمرُّد في الأرض

يزلزلنا

وكلُّ قصيدة في الأرض

إذا رقصت نناصرها

سنخرج من معسكرِنا

ومنفانا

سنخرج من مخابينا

ويشتما أعادينا:

«هلا.. همج هم.. عرب»

نعم! عرب

ولا نخجل

ونعرف كيف نمسك قبضة المنجل

وكيف يقاوم الأعزل

ونعرف كيف نبني المصنع العصريّ

والمنزل

ومستشفى

ومدرسة

وقنبلة

وصاروخًا

وموسيقى

ونكتب أجمل الأشعار...

لربّما كلامه صحيحٌ.

كُتّابُ فلسطين كما هم شعراؤها -إذ لا يمكن نقض عروة الحياة والأدب عن الوقائع الأليمة في بلدهم- يمتلكون موهبةً فطرية في الحكي والسّرد. في وقت متأخّر من إحدى الليالي، في عمّانَ، أدركت منبع هذه الموهبة. جلس في قاعة قرب الرُّواق رجلٌ أو ثلاثة رجالٍ عربٌ من الطّبقة المتوسطة، ثمّ شرعوا في تدخين «الشّيشة»، لينضمّ لهم شخصٌ آخر، فجلسوا في دائرة، واحدًا تلو الآخر حولَ «الشّيشة». تكلّموا

بعدها عن موضوع له وقعٌ في أنفسهم كانوا قد شرعوا فيه مسبقًا، وقُدِّرَ له ألّا ينقطعَ.

فهمتُ حينذاك أنّ هذا التّجمع والتّماهي عادةٌ تتكرّر يوميًا. تكلّموا لغاية تبادل الحديث، والآراء وتشارك تجارب ذلك النّهار؛ أيْ لغاية الحكي لا غير. تلك العادة هي نبعُ موهبتهم السّردية.

عادة التّكلّم عن حيواتهم، وأفكارهم، وانطباعاتهم، وآرائهم السّياسيّة، والعمل، والدّين، والدّين، والقدَر. في فلسطين، كُتّاب يملكون زِمام الكلمة ونجحوا في تحقيق أثرٍ فعّال بدمجهم لمحور فقدان الوطن الأليم. وبمقارنةِ الأدب السّوري أو اللّبناني أو العِراقي أو الفارسي بالأدب الفلسطينيّ، نلاحظ أنّ السّوداويةَ والكآبة تغلبانِ على الأخير؛ لأنّه موصومٌ بالفِقدان والهزيمة. يُقال إنّ حكاياتٍ كهذه قد كُتبت بدوافعَ سياسيّةٍ. شغلني كثيرًا مصدر موهبة العرب العظيمة على السّرد.

لا شكّ في أنّ غسّان كنفاني أحدُ أعظم الرّوائيين، ولعلّه أعظمهم. فارقَ الحياة شابًا، لكنّه وضعَ بصمةً لا تُمحى. حياته لا تختلف عن حيوات شعراء وأدباء كثر من فلسطين؛ ذلك لأنّ حياته ونشاطه الفكريّ متشابكانِ بشكل لا ينفصم مع التغيرات الأليمة التي شهدتها بلاده، حتّى لو كانت حالته رمزيةً. سافر كأغلب الكُتّاب. حتّى الآن، يسافر العديد من المثقّفين والمهنيينَ الفلسطينيين من مستوىً معيّن إلى الخارج –الولايات المُتّحدة الأميركية وبريطانيا العظمى والإمارات العربيّة المُتّحدة والكويت– للدّراسة والتّخصص والعمل في إحدى الوظائف. منهم من يعود إلى فلسطين، ومنهم من لا يعود.

كان كنفاني منفيًا طوال حياته؛ غادرَ فلسطين ولم يعد إليها، كما حدث لابن حمديس وأبي الحسن البلنوبي تمامًا. وكما في قصائدهما، يهيمنُ على كتاباته موضوعُ الوطن البعيد بمرارةٍ وألم، لكنّه تغيّر إلى ذكرى الأماكن المفقودة. بعد النّكبة، لجأ مع أسرته إلى لبنانَ، ثمّ عملَ معلّمًا في دمشقَ، وبعدها انتقلَ إلى الكويت. في سنة ١٩٦٠، آمنَ بجدوى النّشاطِ السّياسيّ رغم أنّه لم يكن سياسيًا من قبلُ. عقدَ قرانه على معلّمة هولنديّة كانت مهتمّة بقضيّة اللّاجئين، فقرّر ربط ممارسته للتّدريس

والكتابة بالسّياسة. انخراطٌ زادت حدّته يومًا بعد آخرَ، وصولًا لانضمامه إلى (الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين) اليسارية، في زمن انعدمَ فيه تأثير التيارات الإسلامية على المقاومة الفلسطينيّة. روّج للحركة عبر إدارته لجريدة الجبهة. عاش حياةً تعيسةً، وقضى نحبه في انفجار مأساويٍّ مُدبّر لسيّارته مع ابنة أخته ذات السّت عشرَة سنةً.

يسرد غسّان كنفاني روايته الشّهيرة (رجالٌ في الشّمس) بطريقةٍ رائعة تدفعُنا إلى التّساؤل عمّا إذا كانت –جزئيًا أو كليًا– حقيقيّة الأحداث. تسرد الرّواية قصّة ثلاثة رجال معوزين أرادوا الوصول إلى الكويت، مرورًا بالصّحراء استعانوا بمغامرٍ منعدم الضّمير؛ سائقٍ فلسطينيٍّ يقود شاحنة نقل مياهٍ قديمةٍ، أقنعهم بالرّكوب في خزّان الشّاحنة ونقلهم عبر الحدود طمعًا في المال. وافق الثّلاثة في نهاية المطاف، فابتدأتِ المأساةُ التي ستستمرُّ حتّى وصولهم الحدودَ. كانوا محشورين في خزّان الشّاحنة بلا تهوية. حاول السّائق إلهاءَ حارس الحدود لكيلا تُفتّشَ الشّاحنةُ، لكنّ الأحاديث طالت. تكلّم مع الحارس، وحاول رشوته، وباله منشغلٌ بالرّجال، ودرجة الحرارة الخانقة التي يواجهونها بلا شك. كان الأوكسجين على وشك النّفاد، والدّقائق مرّت كأنّها ساعات. تلاشى تهكّمه وطُمأنينته. فباغتته رغبةٌ في الاستعجال، لكنّه لم يستطع إظهارها. حتّى عندما غادرت الشّاحنة أخيرًا، لم يستطع زيادة السّرعة لكيلا يثيرَ الشّبهات والانتباهَ إلى المختبئين في خزّانِ الشّاحنة؛ الذينَ ماتوا اختناقًا. لم يذرفْ دمعةً، ولم يطرقوا جدرانَ الخزّان.

اختلفت طرائق تعبير الشّعراء الفلسطينين عن تجربة النّفي، منهم من لجأ إلى الحنين أحيانًا، فأصبح بلدهم بمثابة فردوس مفقود. كان هذا هو شعور عبدالكريم الكرمي(4):

كلّما حاربتُ من أجلكِ أحببتكِ أكثر

أيُّ تُربٍ غير هذا التُّرب من مسكٍ وعنبر

أيُّ أفقٍ غير هذا الأفق في الدنيا مُعطّر

كلّما دافعتُ عن أرضكِ عودُ العمر يَخضَر

وجناحي -يا فلسطين- على القمّة يُنشر

يا فلسطينيّةَ الاسم الذي يوحي ويسحر

تشهد السُمرَة في خدّيكِ أنّ الحُسن أسمر

لم أزل أقرأ في عينيكِ أنشودةَ عَبقَر

وعلى شطّيهما أمواجُ عكّا تتكسّر

من بقايا دمعنا هل شجرُ اللّيمون أزهر؟

والحواكير بكَت من بعدنا والروض أقفر

وكروم العنب الخمريّ شقّت ألفَ مِئزر

لم تَعُد تعتنقُ السّفح عصافيرُ الصّنوبر

ونجوم اللّيل ما عادت على الكرملِ تسهر

ومن الشُعراء الفلسطينيين من تقبّلوا القدرَ، واستخدموا الشِعر للتّمعن في الابتلاء والتّغريب والفقدِ باعتبارها عناصرَ أساسيّةً للمكوّن البَشري. هذا ما فعله الشّاعر يوسف عبدالعزيز(5)، المولود سنة ١٩٥٦، حين كتب في قصيدة (المسافر) من ديوانه (حيفا):

يترجّل قرب المحطّة

يبتاع تذكرةً ويُسافر

يحلم بالشّمس عاريةً

بالفنادق والبحر

بالمرأة الزّنبقيّة؛

يشرب قُبلتها في السّرير

بنافذةٍ هادئةٍ

***

دائمًا

كان يجمع أيّامه مثلما يجمع البحرُ أمواجه

في المساءِ

يحدّق فيها

ويتركها

ثمّ يمضي إلى جهةٍ غامضة.

***

- هل وجدتَ النّهار الملائم؟

- لا!

وجدتُ الطّريقَ الذي غَرَّبَ

النّهرَ عن نبعهِ.

غير أنّ عددًا كبيرًا من شُعراء فلسطين يرفضون هذا القدَرَ. كأولئك الذين لم يولدوا أو كانوا صغار السّن عند إعلانِ قيام «إسرائيل» سنة ١٩٤٨. سميح القاسم أحدهم، وكان في التّاسعة من عمره آنذاك. ليس خضوعًا؛ بل غضبًا من المحتلّ، ووالديه اللّذينِ تخلّيا عن أرضهما لآخرينَ. يقول في قصيدة (التّعاويذ المضادّة للطّائرات):

كنتُ طفلًا آنذاك

علّموني أنّ مجرى الأرض في كف السّماء

علّموني أنّه، سبحانه، يحيي ويُفني ما يشاء

علّموني أنْ أطيع الأولياء

علّموني الدّجل والرّقص على الحبل

وإذلال النّساء

علّموني السّحر والإيمان بالأشباح

والرُّقية والتّعزيم

والخوف إذا جاء المساء

علّموني ما يشاؤون ولم يستنبؤوني ما أشاء

فرش الخضر كفيلٌ بي

وحسبي الأولياء!

***

يا أبي المهزوم، يا أُمّي الذّليلة!

إنّني أقذفُ للشّيطان ما أورثتماني

من تعاليم القبيلة!

إنّني أرفضها تلك الطُّقوس الهمجيّة

إنّني أجتثُّها من جذرها

تلك المراسيم الغبيّة

إنّني أبصق أحقادي وعاري

في وجوه الأولياء الصّالحين

إنّني أركل قاذورات ذُلّي وانكساري

للثكايا والدّراويش

وأقزام الكراسي النّابحين!

وأخيرًا، أدّى شعراءُ آخرون دور الشّاهد، والحارس، ومُقترف التّذكُّر. يسطّر الشّاعر يوسف عبدالعزيز في قصيدة (أقمار شقيف)، من ديوانه (نشيد الحجر) مرحلةً موجعة من حرب لبنان، خلال الاجتياح «الإسرائيليّ» سنة ١٩٨٢، أنهث حياة ثلاثة وثلاثين فلسطينيًا(6).

لمساء مثقل بالأنبياء

لثلاث وثلاثين حديقة

لانفجار البذرة الحمراء في الصّلصال

للصخر الذي يخترق الغيم

وللشّمس الطليقة

سأشدُّ الآنَ أوتار الرّياح

وأغنّي

للذين احترقوا مثل عصافير الصّباح.

سأغنّي

فالدّم النّافر من أجسادهم ينزف منّي

حتّى محمود درويش كان طفلًا في سنة ١٩٤٨. كان في السّادسة من عمره، لكنّه لم يسمح لنفسه بالانجراف في فكرة القدَرِ هذه. ولد بالجليل، في قرية قرب ساحل عكا. عمل أبوه مُزارعًا في أرضهِ، بالقريةِ التي دُمّرت بعد فترة وجيزة من إعلان قيام «إسرائيل». عاشَ منفيًا منذ ذلك الحين. انخرطَ في السّياسة عبر (الحزب الشّيوعي «الإسرائيلي») في حيفا. انتقلَ بعدها إلى بيروت، وظلّ فيها حتّى الاجتياح

«الإسرائيلي» للبنان سنة ١٩٨٢، ثمّ هاجر إلى باريسَ. قرّرت «تل أبيب» منعه من دخول البلد بعد عودته إلى حيفا. في سبعينيّات القرن الماضي أصبح درويشُ - أهمُّ شاعرٍ فلسطينيٍّ معاصرٌ- مستشارًا لعرفات، رئيسِ منظّمة التّحرير الفلسطينيّة يومذاك. قضى خمسَ عشرةَ سنةً في اللّجنة التّنفيذيّة لمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة؛ أعلى سلطة لاتّخاذ القرار، لكنّه استقالَ احتجاجًا على توقيع (اتّفاق أوسلو) الذي عارضه المتعصبون السّياسيّون «الإسرائيليون» والعربُ، وقال: «لا سلام مع الاحتلال، ولا سادة وعبيد». يوضّح محمود درويش موقفه من (اتّفاق أوسلو) في قصيدة (للحقيقة وجهانِ والثّلج أسودُ):

للحقيقةِ وجهانِ،

والثّلجُ أسودُ فوق مدينتِنا

لم نعد قادرين على اليأس

أكثر ممّا يئسنا...

والنّهاية تمشي إلى السّور واثقةً من خُطاها

فوق هذا البلاط المُبلّل

بالدّمع، واثقةً من خُطاها

مَن سينزل أعلامنا:

نحن، أم هم؟

ومَن سوف يتلو علينا معاهدة

اليأس، يا ملكَ الاحتضار؟

كلُّ شيءٍ مُعدٌّ لنا سلفًا،

مَن سينزع أسماءنا عن هويّتنا:

أنتَ أم هم؟

ومن سيزرعُ فينا خطبة التّيه:

لم نستطعْ أنْ نفُكَ الحصارَ

فلنسلِّمْ مفاتيحَ فردوسنا

لرسولِ السَّلام، وننجُ...

ثمّة حادثة يتذكرها مؤرّخو الصّراع العربي – «الإسرائيلي»، تقول الكثير عن القوّة التّعبيريّة للشّعر والأدب وكيف أنَّ -كما هو الحال في العديد من الحالات المماثلة الأخرى عبر التّاريخ– بإمكانها أنْ تبثَّ الخوف في الخصوم. في سنة ٢٠٠٠، اقتُرِحَ في «إسرائيل» إدراج قصيدة محمود درويش (أيُّها المارُّون بين الكلمات العابرة) في الكتب المدرسيَّة:

أيُّها المارون بين الكلمات العابرة

احملوا أسماءكم وانصرفوا

واسحبوا ساعاتكم من وقتنا، وانصرفوا

وخذوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذّاكرة

وخذوا ما شئتم من صور، كي تعرفوا

أنّكم لن تعرفوا

كيف يبني حجر من أرضنا سقف السّماء

***

أيُّها المارون بين الكلمات العابرة

منكم السّيف - ومنّا دمنا

منكم الفولاذ والنار- ومنا لحمنا

منكم دبابة أخرى- ومنّا حجر

منكم قنبلة الغاز - ومنّا المطر

وعلينا ما عليكم من سماء وهواء

فخذوا حصتكم من دمنا وانصرفوا

وادخلوا حفل عشاء راقص، وانصرفوا

وعلينا، نحن، أن نحرس ورد الشُهداء

وعلينا، نحن، أن نحيا كما نحن نشاء

***

أيُها المارون بين الكلمات العابرة

كالغبار المر مرُّوا أينما شئتم ولكن

لا تمرُّوا بيننا كالحشرات الطائرة

فلنا في أرضنا ما نعمل

ولنا قمح نربيه ونسقيه ندى أجسادنا

ولنا ما ليس يرضيكم هنا

حجر أو خجل

فخذوا الماضي، إذا شئتم إلى سوق التحف

وأعيدوا الهيكل العظمي للهدهد، إن شئتم

على صحن خزف

لنا ما ليس يرضيكم، لنا المستقبل ولنا في أرضنا ما نعملُ

في تلك السّنوات، أجريت في «إسرائيل» مراجعةٌ كبرى للمناهج المدرسيّة، بناءً على أبحاثٍ لمؤرّخين إصلاحيين ومُستنيرين إلى حدٍّ ما. «إسرائيل» بلد التّناقضات، وهي في نقاش وتطوير دائمين لأفكارها الدّاخليّة. لقد شهدتْ شخصيًا نموذجًا حيًا على ذلك: مظاهرات احتجاجات Indignados، الذين طالبوا بمزيد من الرّفاهية، والمزيد من التّمويل للمدارس والمنازل، وتقليل التّسلح. حتّى أنّهم سبقوا في ذلك احتجاجات «احتلوا وول ستريت» الأميركيّة؛ وهي أكبر حركة احتجاجية ضد الشركات الكبرى في الولايات المتحدة. شكّكت تلك النّظريات الجديدة في أساطيرَ يعتبر لا جدال فيها حول قيام الدولة، يدعمها التأريخ الرّسمي ومُدرجة في المناهج المدرسيّة. موقف يمكن تسميته باليسار: بالنسبة للإصلاحيين (تسميتهم بالمنقّحين للمناهج فيه مبالغة). التاريخ الوطني هو تاريخ الطبقات المهيمنة، لكنهم لا يأخذون في الاعتبار دور الطبقات الدُّنيا أو التابعة، كما كان يقال في سنوات احتجاجات ١٩٦٨ وما تلاها. ثم كانت هناك مسألة أخرى: حسب رأي دُعاة الإصلاح (وهم المواطنون «الإسرائيليون» من أصل غير أوروبي)؛ وهي تعذُّر أنْ يتجاهل المجتمع «الإسرائيلي» اليهود المهاجرين من الدُّول العربية بعد ١٩٤٨، وكذلك «عرب ٤٨» (وهم الفلسطينيون الذين بقوا في «إسرائيل» بعد قيام الدولة الجديدة وحصلوا على جنسيتها)، وبالتّالي لا يمكن حتّى للكتب المدرسيّة أن تتجاهلهم.

طُعنَ في الاقتراح، وازدادتْ حدّة الجدال، واقتربت من إشعال فتيل أزمة حكوميّة، وأكّد وزير التّربية والتّعليم السّابق، يوسي ساريد، أنّ «أطفالنا يعرفون شاعر الوطن «الإسرائيلي» حاييم بياليك، ويمكنهم أن يتعرّفوا إلى شاعرهم (يريدُ: شاعر الفلسطينيين)»؛ أي محمود درويش. لكن النائب زيفولون أورليف عارض الاقتراح بشكلٍ صريح، وقال إنّ «هذه القصائد قد تشجع على تكوين مشاعر معادية للصهيونيّة واليهودية و«إسرائيل».

وعندما سُئل، قال درويش: نعم، «أرضُنا» المذكورة في القصيدة هي الأرض الفلسطينية. وفي النّهاية ألغى إيهود باراك (رئيس الوزراء آنذاك) قرارَ إدراج الشّعر في المنهاج الدّراسي، وهو الذي التقى ياسر عرفات في قمّة كامب ديفيد من أجل اتفاقية السّلام، مقدمًا العرض الكبير والشهير الذي رفضه الزّعيم الفلسطيني، ما

يُعتبره «الإسرائيليون» حتى يومنا هذا دليلًا دامغًا على عدم رغبة الفلسطينيين في السلام.

الفصل الثّاني

الجدارُ؛ عشرةُ أعوامٍ من الفصلِ

«الجدارُ قبيحٌ كما لو أنّه ندبة في وجه، وكما لو أنّه ندبة على وجه أرض «إسرائيل». هنالك تخوُّفٌ من تحوُّل الجدار إلى حدودٍ سياسيّة، لكن الجدران ستنهار في نهاية المطاف. كانت هناك جدران فيما مضى، لكنّها ما تلبثُ أن تتداعى»(7).

موشيه آرنز(8)

مضت عشرُ سنوات على وضع حجر الأساس للجدار. رينيه باكمان(9)، صحفي يعمل في مجلة (لو نوفيل أوبسرفاتور) الأسبوعيّة الفرنسيّة الإخباريّة، ألّف كتابًا فيه أفضل المقالات التي كُتبت عن الجدار الذي يُطلق عليه أيضًا اسم (جدار الفصل). لم يُوزَّع الكتابُ في إيطاليا نهائيًا، ويمكن التّحصُّل عليه من المكتبات الأوروبيّة، وتلك الموجودة في القدس و«تل أبيب». نُشر كتابه قبل اكتمال بناء الجدار الذي بدأ في سنة ٢٠٠٢. إنّه كتاب تنبُؤي لأنّه يكشف مُسبقًا عمّا سيحدث بعد اكتماله. مثل جميع المقالات التي تتحدّث عن القضيّة العربيّة - «الإسرائيليّة»، فإنّ المقالات الواردة في هذا الكتاب مكثّفة البيانات، والمعلومات، والإحالات التّاريخيّة، والاقتباسات. كل كلمة فيه موزونة بدقّة معيار الصّيدليّ. في الواقع، هذا حقل ألغام يجتمع فيه حزبان متناحران أحدهما يؤيد القضيّة الفلسطينيّة، والآخر يعارضها ومسلّحون تجاه بعضهما؛ لا يُسمح بأي خطأ، لكيلا يفقد الكاتب مصداقيته، وعمله، والقضيةَ التي يناصرها. في الفصل العاشر من الطّبعة الأميركيّة التي نشرتها دار بيكادور، يستشهدُ باكمان بقضيّة بلدة بير نابالا(10) التي يقطنها أكثر من ستّة آلاف شخص، وفيها ٣٥٠ متجرًا حِرفيًّا ومشروعاتٍ صغيرة فشلت؛ لأنّ جميع التّنقلات خارج الحدود قد تأخّرت تأخُّرًا كبيرًا أو توقّفت. يخشى أهالي البلدة أيضًا العواقب الوخيمة التي سيُلحقها الحصار بالنّظام التّعليمي. يأتي بعضُ مُعلمي بير نبالا من القُرى المجاورة ومن القدس الشّرقية، وجميع الطّلاب ملتحقون في جامعة القدس الشّرقيّة. إلى الجنوبِ تقع قرية بيت حنينا(11) (١٤٠٠ نسمة) ستقسمُ إلى قسمين بسبب الجدار. وستُصبح مدرسة البنات في جانب، ومدرسة البنين في جانب آخر. كما ستكرر ذات المشكلات في ميدان الرّعاية الصّحية؛ ففور اكتمال الجدار، سيكون المستشفى الأقرب الوحيد في رام الله، وهو مزدحم على الأغلب وعاجز عن توفير ذات الجودة الموجودة في المستشفى الكبير بالقدس الشّرقيّة. أعلن (جيش الدّفاع «الإسرائيلي») أنّه قد خطّط لبناء معبرين إلى المنطقة المحاصرة؛ أحدهما شمالًا إلى رام الله والآخر في الجنوب. لكنّهما سيحتاجان إلى نفقين وجسرين سيكلّفان ملايين الشّيكلات. ولم يُفتتح أي منهما حتّى السّاعة.

هل كان رينيه باكمان عالمًا بخفايا الأمور؟ وهل حدث ما تنبّأ به فعلًا؟ زرتُ بيت

حنينا، وهي قرية مزدحمة في الطّريق المؤدّية إلى رام الله، تتصل بشكل جيّدٍ بحافلات عربيّة صغيرة، خضراء اللون، تنقل ركّابها إلى القطاعات الفلسطينيّة، وهي الآنَ جزءٌ من القدس جهةَ الشّمال الشّرقي. بيت المقدس، بتعداد سكّانه الذي يقارب ٨٠٠ ألف ساكن، قد أصبح حاضرة مترامية الأطراف مستمرّة في التّوسّع والتّمدّد بلا عراقيلَ. أتخيّلُ عدم وجود شيءٍ هنا قبل عقد أو عقدين؛ باستثناء القرى والحقول. لكن، عند الابتعاد بضع كيلومترات عن القرية القديمة، لا أجد إلّا أبنيةً متلاصقة تتوقّف فجأةً؛ حيثُ تلتقي بالجدار. هنا، يظهرُ أوّل تأثيرٍ مباشر مع الجدار، باتّجاه الشّمال الشّرقي من المدينة، على امتداد الشّارع الرّئيس. الجدار العازل بين «إسرائيل» والضّفّة الغربيّة يتكوّن من ٨٠٪ أسلاك شائكة و٢٠٪ إسمنت مُسلّح، وهو واقع يبدو أنّ الجميع مُرغمٌ على تقبّله. رغم قلّة تطرق وسائل الإعلام إليه، ورغم رؤية الأطفال في سنوات الدّراسة له منذ ولادتهم، فإنّ هذا الجدار قد غيّر حيوات الفلسطينيين جذريًا. كان من المفترض أنْ يبلغَ طوله في المخطط ٧٩٠ كم، لكن لم يُبنَ منه إلّا ٤٥٠ كم، ثمّ مرّ إنشاؤه بتباطؤ حتّى توقّف جنوبَ الخليل. إذا اقتربت من هذا الإسمنت المُسلّح الضّخم في بيت حنينا، فإنّ الجدار الذي يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار سيحجب المنظر، وعند نقطة محدّدة يتّخذ شكلًا مثيرًا للفضول يكاد أنْ يكون سرياليًا. يحيط تمامًا، لأمتار قليلة، بالطّريق إلى رام الله، وهي مدينة خاضعة لإدارة السّلطة الفلسطينيّة، ثمّ يصل إلى دوّار مليء بمحلّات عديدة: متاجر أغذية واحتياجات منزليّة ومحلّات حاسوب وورش عمل، ثمّ ينعطف يسارًا ويبدأ في الصّعود كأنّه أفعىً ضخمة، تتبع دائمًا الطّريق الموجود. يضيقُ الشّارع هنا فلا يعود رابطًا عظيمًا، بل مجرّد صلةٍ بين مناطق سكنية. قطاعات جميلة، متوسطة إلى عالية الارتفاع. بنايات بيضاء أنيقة ذات ثلاثة أو أربع طوابق، بحدائقها العامّة والزّهور التي تملأ الشّرفات، في الجانب الآخر من ممر المُشاة على بعد أمتار قليلة من الجدار. يدخل أحد السّكان مبنىً ويرافقه والده المسن عائدًا إلى المنزل حاملًا مشتريات البقالة. يقول إنّ اسمه (فادي)، أطلب منه أن يخبرني عن شعوره بالعيش على بعد أمتار قليلة من الجدار. ارتابَ منّي أوّل الأمر، ثمّ ما لبث أن استهلّ حديثه. لديه سيارة جميلة، فولكس واغن ستيشن ألمانية الصّنع. يقول إنّه يعمل في شركة استشارات، في رام الله. «أقضي نصف ساعة في الصّباح لأجتاز نقطة التّفتيش

بالسّيارة وأكثر من ذلك الوقت بكثير عند عودتي مساءً. قبل عشر سنوات، كان عملي مجاورًا تمامًا لسكني». تقع نقطة التّفتيش بالقرب من مخيّم قلنديا، وهي واحدة من أكثر نقاط التّفتيش ازدحامًا. لا مشاكل عند الخروج، ولا توجد ضوابط في معظم الأوقات. لكنّ الحال ينقلب رأسًا على عقب في الاتّجاه المعاكس؛ في ساعات الذروة خاصّة. عند الانتقال بالحافلة من رام الله، إذ سيتوجّب على الفلسطينيين النّزول من الحافلة واجتياز التّفتيش والسّير عبر الحدود إلى الممشى بدلًا من المرور عبر نقاط تفتيش تراقبها أبراج يمكن رؤيتها على بعد كيلومترات. إذا كان هناك شخص بمثل حالتي؛ بلا مشاكل، ينتظر في الحافلة، وسيتوجّه جنديّانِ (شابّان في مقتبل العمر، واثنانِ عادة) ببندقية آلية تتدلى على كتف كلٍّ منهما، ويتفقّدان الحافلة ويدقّقان في جوازات السّفر. أجهل السّبب، لكنّي سُئلت مرّات عديدة عن سببِ عدم حصولي على تأشيرة دخول مطبوعة عند وصولي إلى المطار. لكن من الواضح أنّ التّأشيرة كانت موجودة، وشاهدها الجندي بعد تدقيق ثانٍ في الصّفحة أثناء تقليبه لصفحات الجواز بعصبيّة. لعلّهم لم يعتادوا على رؤية مسافرين أوروبيين يسافرون بمفردهم. إنّهم مذعورون على الدّوام.

قيلَ الكثير عن التّعسّف في نقاط التّفتيش عند دخول «إسرائيل». حوادث كثيرة. وبصرف النّظر عن نقاط التّفتيش الأمنية الإلكترونيّة الصّارمة التي تشبه ما يحدث في مطارات أخرى كثيرة، فإنّ الأسئلة التي تُطرح هي ذاتها لا تتغيّر، في حال لم توجد في الجواز تأشيرات دخول لدول معادية علنًا؛ خاصّة إيران. عندئذٍ، تتعقّد الأمور كثيرًا. إنّهم لا يثقون بالصّور الموجودة على جواز السّفر عادة. «هل أنت السّيد الذي في هذه الصّورة؟»، «هذه الصّورة قديمة بعض الشّيء. هل لديك وثيقةٌ أخرى؟». وإذا كانت الصّورة الأخرى هي ذات الصّورة الأولى، فإنّك ستنال ثقتهم. أمّا باقي الأشخاص، فيُسألون أسئلة عاديّة: «هل حدث أن تركت أمتعتك وأنت في طريقك إلى المطار (أو أي نقطة حدوديّة أخرى)؟»، «هل تركتها مع أحدهم؟»، «هل كنت في الأراضي الفلسطينيّة؟»، «هل كنت في دولة مجاورةٍ لـ«إسرائيل»؟»، إذا كانت الإجابة: «نعم»، فالأسئلة التّالية هي: «لماذا؟»، «أتحمل أسلحة معك؟ سكاكين؟ بنادق؟»، «ما سبب زيارتك؟»، «أين تقيم؟». إنّهم يطرحون كل الأسئلة بنبرة فضوليّة

على الأغلب، كتلك التي تستخدمها مع غريب زائرٍ لبلدك.

أبرز حدثٍ واجهته وقعَ يوم الجمعة في معبر الشّيخ [جسر الشيخ حسن أو معبر وادي الأردن] الحدودي مع الأردن، على بعد ثمانين كم شمال معبر ألينبي [معبر الملك حسين أو الكرامة] للسيّاح، حيث اضطررت إلى المرور من الأردن لزيارة مُخيّم الزّعتري المخصّص للّاجئين السّوريين، لكنّه كان مغلقًا لظرفٍ استثنائي؛ لإحياء العشرِ الأواخر من رمضان. يسألني الجندي الشّاب في المعبر الحدودي: «هل هذه صورتك فعلا في جواز السّفر»، «ما اسمُ والدك؟ وما اسمُ جدّك؟ ما اسمُ عائلة أمّك؟». أتساءل، كيف يتحقّقون من أي اسم تقوله. توتّرتُ بسبب طابور الانتظار الطّويل، والنّقل الإجباري بسيارة الأجرة من جسر ألين إلى هناك، والحرارة المرتفعة، والسّخط النّاجم عن كل تلك الاستجوابات، فسألني الجندي الشّاب عن سبب شعوري بالتّوتر الشّديد، أجبته: «لأنّي منهك وأنا قادم من نقطة العبور البعيدة لجسر ألين المغلق»، فيسألني: «آه، مغلق؟ لماذا؟». فقدانك لأعصابك في هذه الظروف سهلٌ للغاية.

لكن فادي محظوظ، فسيارته تحمل لوحة صفراء اللون، ممّا يعني أنّها «إسرائيلية». قال: «كان الحال أفضل قطعًا قبل الجدار؛ خاصّة بالنسبة إلى العمل. أشخاص كثر كانوا يعملون في القدس، لكن من بقيَ منهم هناك فقدَ وظيفته. من الصّعب العثور على وظيفة أخرى في فلسطين». سألته عمّا إذا كان لديه أصدقاء وأقارب على الجانب الآخر من الجدار، فأجابني: «نعم، أقارب كُثر في الجانب الآخر. من أجل التّواصل معهم في الوقت الرّاهن، مع أولئك الذين لا يبعدون عنّي سوى مئتي مترٍ، فإنّني أستخدمُ شبكات التّواصل الاجتماعي».

وأنا محظوظ أيضًا. واصلتُ زيارتي لبيت حنينا. في متجر ملحقات الكمبيوتر الذي دخلته مصادفةً، التقيت محفوظ محمد، وهو متخصّص في البصريّات وكان قد سافر إلى إيطاليا عدّة مرّات للتّخصُّص في هذا المجال. يقيم على الجانب «الإسرائيلي» من بيت حنينا مع زوجته المُسلمة وطفليه -صبي وفتاة- كانا في السّيارة. عمل محفوظ مترجمًا للقنصليّة الإيطاليّة، وكان دائم السّفر إلى بيروجا بإيطاليا لدورة

تدريبيّة. وهذا سبب إتقانه للغة الإيطاليّة. تمكّن من أن يشرح لي بوضوح كيف سارت الأمور في القرية التي تحدّث عنها رينيه باكمان، فرأيت أنّ تنبؤاته قد تحقّقت على أرض الواقع. أجهل ما إذا كانت المعابر والأنفاق والجسور قد بُنِيَت. قال محفوظ إنّ «قرية بيت حنينا قد ألحقت قبل سنة ٢٠٠٢ بمكان ثانٍ -الرّام- ويُعبران بطريق واحد. احتاجوا إلى ثلاث سنوات لإنهاء الجدار. في النّهاية، ظلّ نصف بيت حنينا في الأراضي «الإسرائيلية»، والنّصف الآخر مع الرّام التي يزيد عدد سكّانها على عشرين ألف نسمة من سكان القدس قد وجدوا أنفسهم في فلسطين. كان لا بد من تهجير ٨٠٪ من السّكان لأسباب مختلفة.

لقد دمّر الجدار العائلات والاقتصاد. المدارس (كما تنبّأ باكمان) قد قُسّمت إلى قسمين: ظلّ بعضها هنا، وما تبقى فعلى الجانب الآخر من الجدار. اضطرّت أخت محفوظ إلى الانتقال مع زوجها وأولادها. أضاف: «بقيتُ في هذا الجانب مع زوجتي والطّفلين، لكن لدي أقارب وأصدقاء آخرين على الجانب الآخر من الجدار. زيارتهم تعني عبور الحاجز ونقاط التفتيش والتّحكم والطّوابير. كما تعلم، إنّهم خلف هذا الجدار مباشرة»، قال وهو يُشير إلى الجانب الآخر من الكتلة الخرسانيّة. توجد على الطريق المتاخم للحاجز المؤدي إلى رام الله متاجر مختلفة وأسواق مركزيّة صغيرة والمزيد من المتاجر داخل الأحياء السّكنيّة. يتابع محفوظ حديثه قائلًا: «أصبحت بيت حنينا منطقة بلا حياة خلف الجدار. من امتلكوا أعمالًا وبقوا في الجانب الآخر، اضطرّوا إلى إغلاق متاجرهم، وفي أحسن الأحوال، أعادوا فتح أبواب متاجرهم هنا. لكن ظلّ الكثيرون منهم عاطلين عن العمل، فتوجّهوا إلى رام الله أو القدس بحثًا عن وظائف، لكنّ معدّل الوظائف الشّاغرة قد انخفض فيهما كثيرًا».

فادي، الشّاب الفلسطينيّ الذي يدير متجرًا للحواسيب وملحقاتها، أحد هؤلاء. يعيش في القدس؛ في هذا الجانب من الجدار، يضيف قائلا: «قبل ذلك، كان معظم عملائنا من رام الله، أمّا الآن وبسبب مشاكل العبور، لم يعد أحدٌ يأتي إلى هنا. هذا يعني تدهورًا كبيرًا في أعمالنا. تخليتُ عن فكرة الذّهاب إلى فلسطين للعمل. النّقل التجاري هو أكبر مشكلة. لأي توصيل، يجب أن تسلك المركبات انعطافات مرهقة، وتُغلق عند نقاط التفتيش، وتضيع ساعات في طوابير الانتظار». علاوة على ذلك،

فإن عشر سنوات ونيّف من بناء الجدار قد دمّرت الاقتصاد الفلسطيني، بعواقب لعلّها أسوأ من أي قصف. هذا ما أكّدته منظمة التّعاون الإيطاليّة (جزء من وزارة الخارجية مكلّف بدعم البلدان النّامية). لم يُحقّق برنامج تطوير الشّركات الصّغيرة ومتوسطة الحجم (SMEs) الذي تُموّله حكومتنا [الإيطاليّة] النّتائج المَرجوّة منه. كان الغرضُ من البرنامج تيسير الحصول على قروض الائتمان للشّركات الفلسطينيّة الصّغيرة ومتوسطة الحجم لشراء وسائل التّكنولوجيا والآلات والمعدات والتّراخيص الصّناعية والسّلع الأساسية إيطالية المنشأ. ممّا يُعزّز استخدام التكنولوجيا والإنتاجية الفلسطينيّة من جهةٍ، ويعزّز الحوار بين المصارف والمشروعات الصّغيرة والمتوسطة الحجم من جهة أخرى. يكلّمني الآنَ ضابط التّعاون الذي يعمل في القُدس، والذي انضمّ حديثًا للعمل في إحدى القنصليتين؛ في الجانب الفلسطيني، شَرقًا. إنّها فيلا باهرة صغيرة مؤلّفةٌ من طابقين على التّلال، وسط مكاتب دبلوماسيّة أخرى، بالقرب من فندق السّفير الأبيض وما يُطلق عليه عرب القدس اسم مُستشفى العيون. هذه المنطقة المليئة بالتّلال عبارة عن واحة للاستجمام خلال قيظ الصّيف.

زار فولفيو كابورسو -الخبيرُ في تطوير القطاع الخاص والمُتخصّص بدعم الأعمال الصّغيرة- بلادًا مختلفة، لبرامج مماثلة، منها ألبانيا. قابلته لمناقشة عواقب الجدار على الاقتصاد الفلسطيني، وبرنامج الدّعم العام الإيطالي، والتّوجهات المستقبليّة. يستندُ البرنامج الذي يُعقد كل ثلاث سنوات إلى اتفاقية سنة ٢٠٠٥. تعهدت حكومتنا بتقديم قرض ميسّر لوزارة الماليّة الفلسطينيّة بقيمة ٢٥ مليون يورو على ثلاث دفعات. يتراوح عدد المشروعات الصّغيرة ومتوسطة الحجم التي من شأنها أن تدفع عجلة النمو في فلسطين بين ألفين وثلاثمئة ألف مشروعٍ. نحتاج أيضًا إلى مراعاة التّاجر الصّغير حيث يجب ألّا يتجاوزَ الحد الأقصى لعدد الموظفين في المُنشأة ١٩ شخصًا. أهم قطاعات البناء هي خدمات معالجة الحجر والرُّخام: الوكالات والأعمال والسّياحة والفنادق والمطاعم. إذا أرادت الشّركة شراء آلةٍ، فستطلب قرضًا من البنك، وسيُسَدَّدُ من الودائع. عدد المصارف العاديّة المسجّلة في فلسطين ثمانية عشر مصرفًا، لكن في القليل منها أموال الأغلبيّة الفلسطينيّة، والأخرى أردنية، وأحدُها مِصري والآخر إنكليزي. وفي حالة قبول القرض، فإنّ المصرف سيحيل الطلب إلى

وزارة المالية طالبًا تحويل المبلغ. تتراوح المبالغ من ٥٠ ألف بحدٍّ أدنى إلى ٥٠٠ ألف يورو بحدٍّ أقصى. صُرفت الدُّفعة الأولى البالغة ٩ ملايين من خلال المصارف التِّجاريَّة. ومع ذلك، فقد فشل البرنامج تمامًا، أو يكاد أن يفشل. بعد ثلاث سنواتٍ، صدرت الموافقة على ما مجموعه ثلاثة قروض بإجمالي ٩٦٥ ألف يورو: قرض لشركة أدوية، والآخر لمصنع يتعامل مع معالجة الرُّخام وهو قطاعٌ مهم تقليديًا في فلسطين، والثَّالث لشركة تختص بالأعمال الزِّراعيَّة، وهي قروض صغيرة جدًّا. ومع ذلك، كانت الظروف مؤاتية للغاية؛ والحد الأقصى لسعر الفائدة لم يتجاوز نسبة الـ ٥٪، ووصلت فترة السَّداد إلى ستِّ سنوات؛ بما في ذلك سنة سماح.

استأنفَ البرنامج عمله مرة أخرى بعد ركود طويل عبر خمسة قروض استُلِمت. وصلت طلبات التمويل إلى البنوك بمبلغ إجمالي يصل إلى ٢.٥ مليون يورو. وعلاوة على ذلك، أُنشئ نظام مبتكر للتَّمويل الميسر لصالح صغار المزارعين من خلال التَّعاون مع أحد المصارف المعنيَّة واتِّحاد جمعيات المزارعين الفلسطينيين. يستهدفُ النِّظام تمويل أكثر من ٤٠ قرضًا. خُطِّط للبرنامج في فترة كان فيها نظام الائتمان في فلسطين لا يزال في بدايته، ثم بدأ العمل فيه عندما أُنشِئت البنوك برؤوس أموالٍ ضخمة ومتاحة بتكلفة منخفضة. لذا فإنَّ خط الائتمان بقيمة بسيطة لم يعد تنافسيًا. وفي الوقت عينه، شرع التَّعاون الإيطالي على أساس التَّجربة السَّابقة عمله بمبادرةٍ جديدةٍ قائمةٍ على الائتمانات الصَّغيرة التي تهدفُ إلى توفير فرص العمل والدَّخل لمعظم الفلسطينيين.

ثمَّة أسباب أخرى، أكثر هيكليَّة، أدَّت بحياديَّة إلى شيءٍ من التَّشاؤم. يوجد حاليًا في فلسطين الكثير من الأصول السَّائلة المتاحة في المصارف، ولذلك تُفضِّل تلك المصارف استخدام أموالها الخاصَّة، لا أموالها من مصادر أخرى. تستثمر المصارف أساسًا في القروض المُقدَّمة إلى المؤسَّسة الوطنيَّة الفلسطينيَّة بسبب مُعدَّلات الفائدة المرتفعة التي قد تفرضها، وفي الائتمان الاستهلاكي خاصَّة للشَّركات التي تستخدمها السُّلطة الوطنيَّة الفلسطينيَّة بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة.

نتطرق هنا إلى أهم العقبات: مسألة عدم وجود دولة وهو عامل يُعيق النُّمو،

والصُعوبات المتصلة بملكيّة الأراضي التي يمكن مصادرتها بسهولة شديدة ممّا يُقلّل قيمة الأرض كثيرًا، وأخيرًا، الجدار. إضافةً إلى الظُروف المُتغيّرة للنّظام المَصرفي، فإنّ للوضع السياسي دورًا بارزًا. التّأثير الأكثر خطورة النّاجم هو محدودية تدفُّق العُمّال والسّلع إلى «إسرائيل»، ممّا ألحقَ عواقب وخيمةً بسوق العمل، فضلًا عن الانخفاض الكبير في عدد العَمالة الفلسطينيّة في «إسرائيل»، وزيادة البطالة في الضّفة الغربيّة وانخفاض الدّخل. هذا غيضٌ من فيضٍ.

في الطّيبة(12) -المدينة المسيحية الوحيدة في الضّفة الغربيّة؛ شمال القدس- هناك شركة تنتج البيرة وتحتاج إلى نقل براميل البيرة. نقل البضائع في الأراضي الفلسطينية يستغرقُ وقتًا أطول بكثير بسبب الجدار، وقبل أن يصل العُمّال إلى وجهتهم، يمضونَ ساعاتٍ طويلة في الطّوابير عند نقطة التّفتيش. اضطرارهم إلى ترك البضائع في الجمارك مدّةَ يوم أو أكثر، يُقلّل من قدرة الأنشطة التّجاريّة على المنافسة كُليًا. هناك قيود مشدّدة على دخول بعض البضائع لأسباب أمنيّة. مثالٌ آخرُ: «شركة تبني نظامًا مبتكرًا لري الحقول، حاولنا دعمها، لم تستطع تقديم قطع الغيار لمقاييس البارومتر في البلاد، لأنّها من بين السّلع المحظورة لأسبابٍ تتعلق بالسّلامة؛ فكانت النّتيجةُ: إلغاء العقد».

في فلسطين، كما هو الحال في أي بقعة أخرى من العالم، فإنّ علوم الحاسب الآلي والتكنولوجيا الفائقة هي المُستقبل بلا شكٍّ، وهي الصّناعة الأكثر سلامةً. ستعمل هنا كثيرًا على دعم التقدم والبحث وازدهار الشباب والبلد كذلك. تنقلني هذه المسألة إلى البحث عن باحثين جامعيين وشباب منشغلين في هذا المجال الجوهري الذي أجده مفعمًا بالحيويّة. أوّل شخص تحدّثت معه عمل مساعدًا في (جامعة بيرزيت)، وهي أقدم وأرقى جامعة فلسطينية -إن لم تكن الأهم- في قسم علوم الكمبيوتر، أحد تلك الأقسام التي يجب أن تُساهم في «بناء مستقبل فلسطيني أفضل من أي قسم آخر» (شعار الجامعة هو: بناء مستقبل أفضل لفسطين). في القسم ٣٠٠ طالب تقريبًا، وهناك خطّة طَموحة لزيادة عدد الموظفين والموارد في المستقبل القريب. ولد مهندس الكمبيوتر الشّاب، أيمن، في رام الله سنة ١٩٨٦. أجاب عن السّؤال الأوّل: «هل هناك دعم كافٍ للجامعة وقسمه؟»، بقوله: إنّه غير مطلع على الوضع الاقتصادي

للجامعة، لكنّه أضاف أنّ «دارسي الدّراسات العُليا في علوم الكمبيوتر يجدون العمل بسهولة في فلسطين بسبب وجود الكثير من الشّركات الجديدة في هذا القطاع». ومع ذلك، فإن إحصاءات معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني (MAS) أقلُّ تشجيعًا؛ إذ زادت بطالة الخرّيجين في الفترة ما بين ٢٠٠٤-٢٠١١ في الضّفة الغربيّة بنسبة ٦.٢٪، وبلغت ذروتها بنسبة ١٤٪ للعلوم الإنسانيّة، أمّا في الهندسة وعلوم الكمبيوتر فزادت بنسبة تتراوح بين ١.٢٪-٣.٢٪. يمكن فهم ذلك إذا كانت الشّركات متعدّدة الجنسيات أو شركات محليّة. «يعمل الخرّيجون مبرمجين، عادةً، في شركات تكنولوجيا المعلومات المحليّة الفلسطينيّة، مثل: Exalt وAsal وGSoft والعديد من الشّركات الأخرى». يُعلّل أيمن ذلك بقوله: «إنّها شركات متوسطة إلى كبيرة، من ٨٠ موظفًا أو أكثر في Exalt، إلى ٨٠٠ في شركة جوّال للاتّصالات، وهي أوّل وأكبر شركة اتّصالات مُتنقّلة في فلسطين، حيث حضرَ دورةَ تحليل أعمال. عمل أيمن حين كان في الثّلاثين من عمره مطوّرَ أنظمة في منظمة غير حكوميّة تعمل في مجال الإسكان، اسمها CHF International. كما عملَ معيدًا في الجامعة، وتلقّى تدريبًا خاصًا، يهتمُّ به أكثر من عمله في الجامعة. التّوصيف الوظيفي مُفصّل. تسمى الشركة Iris Interactive Solutions (أريس للحلول التّفاعليّة) ومقرُّها رام الله؛ العاصمة الاقتصاديّة والسّياسيّة للضّفة الغربيّة. «تأسّست في منتصف سنة ٢٠١٠. نستهدف القطاع السّياحي، وإدارة البيانات، والتّسويق والتّطورات. يمكن استخدام منتجاتنا في إرسال أو استقبال المعلومات من أشخاص يساهمونَ في صياغة البيانات بطريقة بسيطة وبديهيّة. التّكنولوجيا التّفاعليّة مجالٌ للتّفاعلات بين البشر وأجهزة الكمبيوتر بطرقٍ مختلفة. انصبّ اهتمامُنا على تقنية اللّمس. بدأت شركتنا من أطروحة أنجزتُها مع زميلي خلال فترة دراستنا الجامعيّة، وهو الآن شريكي في العمل». حصلت هذه الأطروحة على الجائزة الثانية لأفضل اختراع صنع في فلسطين وفي مسابقات العالم العربي بهذا القطاع. بدأ الاختراع من الأطروحة، ومنها جاءت فكرة المشروع الاحترافي بأكمله المسمى «TouchIS - Touch Interactive Surface». يوضح أيمن أنّ TouchIS هو أول جهاز متعدّد اللّمسات (ملاحظة: مَراجع أنظمة اللّمس الإلزاميّة هي الأيفون والأيباد والألواح الإلكترونيّة. [المحرر الإيطالي]) مصمّمٌ ومبنٍ بالكامل في فلسطين. تقوم الشّركة أساسًا على الاستقلالية الكاملة والتداول في

تطبيقات شاشة اللّمس التفاعلية في فلسطين، مثلا: لتطبيقات اللوحات أو صالات العرض، بحجم شاشة التلفزيون والتحكم فيها بواسطة أجهزة الكمبيوتر الخارجية، يمكنك الرّسم عليها أو عرض معلومات حول منتج أو شركة أو مهمة.

أمّا الباحث الثاني الذي تواصلت معه، فاسمه: إياد، وكان في مقتبل عمره أيضًا. إنّه مهتم بـ«إدارة الموارد للشّبكات المتسامحة مع الاضطراب» على وجه الخصوص (حرفيًا: إدارة الموارد للشّبكات المقاومة للتّدمير). ويوضح تطبيقيًا: «هذا يعني توفير الطاقة وعرض النّطاق التّردّدي والتّخزين. يمكن استخدام هذه الشّبكات لرصد: الزّلازل، وحفر آبار النّفط تحت مياه البحر، وتلوّث المحيطات، ولها تطبيقات أخرى كثيرة. المقرّرات الجامعيّة التي أُدَرّسها في (جامعة بيرزيت) هي: أنظمة التّشغيل والأنظمة الرّقميّة وشبكات الكمبيوتر المُتقدّمة، كما أهتمُّ بمشاريع التّخرج وأُشرِف على أطروحات الماجستير». عندئذٍ، عقد إياد مقارنةً بين نظام الجامعات الفلسطينيّة والأوروبيّة، نفهم السّبب إذا عرفنا أنّه كان مُعيدًا في (جامعة بريمن) بألمانيا مدة أربع سنوات قبل عودته إلى رام الله. واحد من فلسطينيين كثر اضطرُّوا إلى السّفر حول العالم لغرض التّخصص، كما أنّه يجيدُ الإنكليزيّة بإتقان. من الناحية الموضوعية، قد يتخيّل المرء أنّه مثل العديد من أقرانه الأوروبيين. بالإضافة إلى أنّه -حسب علمي- مُميّز لكفاءته في الحاسب الآلي. «النّظام التّعليمي متشابه للغاية، مجرّد اختلاف بسيط في بعض المُقرّرات. غير أنّ بوسع الطُّلاب في ألمانيا استكمال شهادتهم في ثلاث سنوات، بينما في بيرزيت فإنّ المنهج هو ٥ سنوات للهندسة، و ٤ سنوات للتّخصُّصات الأخرى. تكمن العلامة الفارقة في البحث؛ الجامعة الألمانيّة لديها خمسة معاهد بحثيّة، هناك طلاب دراسات عُليا يعملون بشكلٍ جيد للغاية وينشرون الكثير، بينما ليس لدينا طلاب دكتوراه وعبءُ العمل لدينا باعتبارنا أعضاء هيئة تدريس يمنعنا من التّركيز على البحث العلمي، فكل أستاذ في ألمانيا يُدرّس ستّ ساعات للحصول على رصيدٍ، أمّا في بيرزيت فعلينا التّدريس ١٢ ساعة. وبالطّبع، ثمّة تمويل مالي هناك، بينما نعاني هنا من نقص الأموال ونبحث دائمًا عن رُعاة لتغطية الرّسوم الدّراسية الأساسيّة. تؤثّر هذه الحقيقة على جودةِ عملنا».

يؤكّد إياد ما رأيته في الإحصائيات حول زيادة الالتحاق بالجامعة، جامعته

هي ثاني أكبر جامعة بعد الأقصى في القدس. «يزداد عدد الطُلاب كل سنة، حتى عدد الطالبات آخذ في الازدياد، وبعد التّخرج هناك فرص للطُلاب للعثور على عمل في فلسطين. ومع ذلك، هناك مشاكل كبيرة حيث أن لدينا عددًا كبيرًا من طلاب الدراسات العليا الذين يتوافدون كل سنة من مختلف الجامعات الفلسطينيّة؛ الأماكن الشاغرة في الشركات والبنوك لا تسع الجميع. يبحث كثيرون عن عمل خارج فلسطين.

من ناحية أخرى، نحن في فلسطين لسنا في مأزقٍ اقتصادي». ذكرت دراسة أجراها الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني بأنَّ مستوى المعيشة جيد. في سنة ٢٠١٠، بلغ متوسط الإنفاق الشهري للأسرة الواحدة (ستة أفراد في كل أسرة في المتوسط) في الضِّفة الغربيّة وغزّة ٨٨٧ دينارًا أردنيًا، أي ما يزيد قليلًا عن ٩٠٠ يورو، معظمها (٣٢٢) على الغذاء، (١٣٥) على النّقل والاتّصالات، و (٧٦) على المنزل وباقي الأشياء. تنفق العائلة في الضِّفة الغربيّة أكثر قليلًا من غزة (٩٩٣ دينارًا شهريًا مقابل ٦٨٠)، إذ يبلغُ النّاتج المحلي الإجمالي (أرقام ٢٠٠٥): ٥٥ و٥ مليار دولار، لمتوسط دخل سنوي للفرد يبلغ ١٥٠٠ دولارٍ في الضّفة الغربيّة، و ٦٦٠ دولارًا في غزة. أفسد الجدار قلب الاقتصاد القابل للنُّمو، وانخفضَ النّاتج المحليّ الإجمالي منذ سنة ٢٠٠٢، وهي سنة البدء ببناء الجدار مع جميع القيود الأخرى، بنسبة ٢٧٪ مقارنةً بسنة ١٩٩٩. ثم حدث ارتفاعٌ طفيفٌ بين سنتي ٢٠٠٤-٢٠٠٥ تبعه ركودٌ بين سنتي ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ربما بسبب انخفاض قيمة المساعدات الدوليّة نتيجةً لتأكيد (حماس) على كونها الحكومة الرّسميّة. لكن المأساةَ الحقيقيّةَ هي البطالةُ، وهي خطيرة جدًا بالفعل؛ إذ زادت بشكل كبير في غضون عشر سنوات. في سنة ١٩٩٩، كانت بلغ عدد تصاريح العمل في «إسرائيل» ١٣٥ ألفَ تصريحٍ. وفي ٢٠١٠ خُفِّضت إلى ٧٨ ألفَ تصريحٍ بسبب صعوبة التّنقُّل النّاجمة عن الحواجز. وبسبب هذا التّعاون، لم أتمكن من الاتصال بسمير عبدالله، المدير العام لـ(معهد ماس للبحوث الاقتصادية الفلسطينية)، الذي يعمل مع وزارة خارجيتنا. (MAS) شديد الدّقة وإحصائياته موثوقة، وربما تكون أكثر موثوقية من أرقام (الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني)، و(وكالة الإحصاء الوطنيّة)، والدّولة الفلسطينيّة التي يبدو أنّها تواجه مشاكل اقتصاديّة جسيمة تحدُّ

من سلطتها. زعمت دراسة قديمة؛ ولكنها مفيدة حول تأثير الجدار أنّ البطالة تتأثّر بالجدار إلى حدٍّ وصلَ إلى ٣٠.٩٪ (٢٥.٢٪ غرب الجدار و٣١.٦٪ شرقه). وقد قورنَ ذلك بمعدل البطالة الإجمالي البالغ ٢٦.٨٪ في كلٍّ من الضِّفة الغربيّة وغزة و ٢١.٤٢٪ في الضِّفة الغربيّة في سنة ٢٠٠٤، وكذلك معدل الفقر ٢٥.٩٪. في سنة ٢٠١١، بلغت البطالة ٢٠.٩٪، مع معدل بطالة ١٧٪ في الضِّفة الغربيّة و ٢٩.٢٪ في غزة.

وبغضِّ النظر عن تلك الإحصائيّات، في الضِّفة الغربيّة والمدن الكبرى، نلاحظُ ديناميكيّة وعزم الشَّباب على عدم الاستسلام؛ عند دراسة «نشاطهم»/ «إنّهم مستعدُّون، ويُتقنون اللُّغات ويُسافرون، ويحاولون استخدام المعارف التي اكتسبوها في بناء وطنهم بإقامة أنشطة فيه؛ وهم يُواجهون صعوبات جمّة لا يمكن تصوُّرها». إنّهم ذوو بأس وإصرار. تجد في المدينة مكاتب ووكالات خدمات في كل مكان، رغم أنه من غير المعروف ما إذا كانت ستظل موجودة بعد بضعة أشهر. ومع ذلك، فإنّها دليل على قابليّة الاستمرار الاقتصادي. درس كثير من أصحاب المشروعات الصَّغيرة مجالات التّكنولوجيا المتقدمة في الجامعات الفلسطينيّة. مشروعاتهم مزدهرة؛ إذ يكسبون مشتركين، معظمهم من النساء. مشروعات كثيرة في الضِّفة الغربيّة: في نابلس والقدس وجنين.

(جامعة بيرزيت) التي زرتُها هي الأقدم؛ تأسّست سنة ١٩٢٤ - قبل سنةٍ واحدٍ من تأسيس الجامعة العِبرية في القدس - وقد تكون أرقى جامعة. تقع على بعد ٤ أو ٥ كم من رام الله (عاصمة الضِّفة الغربيّة) الواقعة على بعد حوالي ٢٠ كم شمال القدس. يقع الحرم الجامعي في موقع رائع؛ على تل ينتشر الطُّوب الأحمر وأشجار الزَّيتون في وديانه. للوصول إلى هناك، عليك ركوب حافلة من «بوابة دمشق»، إحدى المحطات العربية المؤدية إلى الأراضي الفلسطينيّة. يتكلّم السَّائق بودٍّ كعادته مع الجميع ويتلكّأ في نقل الرُّكاب. أستقلُّ من رام الله حافلةً صغيرة أخرى، وفي غضون نصف ساعة سأصل إلى الحرم الجامعي. لا تفتيش للدُّخول. تجاوز المدخل واستمتع بالطرق الواسعة للجامعة، والانطباع بالتأكيد أنّها ليست مكانًا فخمًا؛ بضع لافتات وتحذيرات مكتوبة باللغة العربيّة فقط، والكافتيريا متقشِّفة. نلاحظ للوهلة الأولى أنّ عدد الإناث أكثر من الذُّكور، وجميعهن يرتدين نوعًا من العباءة:

(القنعة). مكاتب الإدارة بسيطة، ولكنّها ذات كفاءة. طلبت من الموظفة التي لا ترتدي الحجاب الحصول على معلومات ومقرّرات الجامعة. تشير البيانات إلى أنّه في السنة الأكاديمية ٢٠١٠-٢٠١١، كان عدد الخريجين من الإناث أكثر، بحوالي الثلثين، ١٠٧١ من ١٧١٩ في المجموع، وفي جميع الكليات -باستثناء الهندسة وعلوم الحاسوب- عدد الخريجين من الذكور متكافئ تمامًا مع الخريجات الإناث. كان الأثر عكس ذلك قبل عشر سنوات؛ معظم الخرّيجين كانوا ذكورًا، ٣٧٨ طالبًا من أصل ٦٧١ طالبًا. من بين ١١١ أستاذًا ومُعيدًا، يبلغ عدد النّساء ٦٤ والذُّكور ٤٧. كان أعلى معدّل لخرّيجي جامعة بيرزيت في قسم الاقتصاد (٥٠٢، بما في ذلك ٢٦٩ خريجة)، ثم الآداب (٤٦٠، بما في ذلك ٣٤٠ خريجة)، والقانون (١٧٦ منهم ١٠٨ خريجة)، والهندسة (١٦٢، بما في ذلك ٤٧ خريجة)، والعلوم (١٣٢، بما في ذلك ١٠٥ خريجة)، وعلوم الحاسوب (٧٠، بما في ذلك ٣٥ خريجة). ازدهرت الجامعة خلال العقد الماضي على الرُّغم من القيود، لا سيما في العدد الإجمالي للإناث، وهذا بالتّأكيد، إشارةٌ إلى تغيُّر ثقافي في التّفكير، بعيد كل البعد عمّا يتردّد في وسائل الإعلام الغربيّة؛ عدد الطلاب المسجّلون في ٢٠١٠-٢٠١١ ٧٨٥٩ طالبًا (٤٧٤٧ طالبةً). كانوا ٤٦٢٨ طالبًا قبل عشر سنوات (نصفهم من الإناث ٢٣٢٦ طالبةً)، وتضاعف عدد الطلاب المسجّلين تقريبًا في غضون عشر سنوات، فتضاعف بالتّالي العدد الإجمالي للطالبات.

الفصل الثّالث

البطاقة الزّرقاء

«وُضعت الأهدافُ الاقتصاديّة في «إسرائيل» لضمانِ بقاء الدّولة»

عزرا سادان

(مدير عام وزارة الماليّة «الإسرائيليّة» السابق)

ميرا فتاةٌ تعيش في ضاحية من ضواحي القدس الكُبرى، على مسافة قريبة من بيت لحم، التي كانت حينذاك امتدادًا للمدينة. إنَّها طالبة جامعية تحلم بأن تصبحَ طبيبة أسنان، وهي ملتحقة بجامعةٍ في روما؛ إيطاليا. عرفتني إلى رجل في مكتبة - مقهى معروف في القدس العربيَّة، وهو مكان له طابع غربي ويحظى بشعبيَّة واسعة بين الأوروبيين والأمريكيين. تقول إنَّها تُريد أنْ تحكي لي قصَّتها؛ قصَّتها وقصَّة عائلتها. قصَّة مثل ذكريات أخرى كثيرة، ولكن عن البيروقراطيَّة المعتادة بشكل خاص. قصَّة البطاقة الخضراء والبطاقة الزَّرقاء. ميرا فلسطينيَّة مسيحيَّة. لا علاقة لها بالحركات السياسيَّة أو الطَّوائف الثَّقافية أو الإسلامية. التقينا في البهو الأنيق لفندق نوتردام، المبنى الأبيض العاجي الضخم الذي بناه الفرنسيون في القرن التَّاسع عشر، مقابل البوَّابة الجديدة مباشرة؛ إحدى البوَّابات الثَّماني للمدينة القديمة المؤدية إلى حارة النَّصارى(13)، يُطلق عليها اسم (باب جديد) لأنَّها البوَّابة الوحيدة التي لم تكن في التَّصميم الأصلي للجدران في القرن السَّادس عشر. افتُتحت أيام حكم العثمانيين ليصل الحُجَّاج المسيحيين بشكل أسرع إلى أماكنهم المقدسة داخل الأسوار.

الشَّمس تغربُ والنَّسيم عليلٌ في ساعةٍ من ساعات قيظ صيف القدس. عندما احتلَّ اليهود الجزءَ الشَّمالي من فلسطين سنة ١٩٤٨، التي نسميها الجليل كما تروي ميرا - انتقل الأشخاص الذين كانوا يعيشون في منطقة الجليل وأطفالهم إلى الدولة الجديدة، وتحصَّلوا تلقائيًا على وثائقَ «إسرائيليةٍ» من جنسيَّة وجواز سفرٍ. يُطلق عليهم اسمُ (عرب «إسرائيل»)، لكن ميرا، مثل كثيرين آخرين، تفضل تسميتهم «عرب ١٩٤٨». بعد حرب سنة ١٩٦٧ التي استولت فيها «إسرائيل» على بقية فلسطين، وما تلاها من ترسيم للحدود، فرضَتْ استخدام بطاقة هُويَّة على الفلسطينيين المقيمين في القدس. تنتقل البطاقة الزَّرقاء تلقائيًا من الأب إلى الابن بموجب القانون. تحصَّلت ميرا عليها من طرف جدها لأمها، لأنَّه امتلك منزلًا على هذا الجانب من الخطِّ الحدودي؛ بالقرب من بيت لحم. توضِّح ميرا لي موقع المنزل بدقَّة. أواجه صعوبةً في الفهم: يجب أن تغادر نقطة التَّفتيش، وهي واحدةٌ من أكثر النقاط ضخامة على طول الجدار في الضَّفة الغربيَّة، وها هو أمامنا؛ على الجانب الأيمن. تشرح ميرا أنَّ نقطة

التّفتيش هذه موجودة دائمًا حتّى قبل بناء الجدار. تقول: «المسألة الآن أكثر تعقيدًا وتهدر الوقت». امتلك والدها البطاقة الخضراء كجميع الفلسطينيين الآخرين في الضّفة الغربيّة؛ لأنه ولد في بيت لحم. لكن عندما تزوج والدتها سنة ١٩٨٨، وبما أنّ والدتها من القدس، تمكن من الحصول على البطاقة الزرقاء أيضًا. ليس بشكل تلقائي طبعًا. احتاجا عندئذ إلى التّواصل مع محامٍ مسؤول عن متابعة مفاوضات (لمّ شمل الأسرة) وبدء إجراءات التّقاضي. نالها أبي في نهاية المطاف. من حسن حظّنا؛ فهذه الحياة كانت لتصبحَ شديدة التّعقيد دونها. ذهبت الى الطبيب في القدس في سنة ١٩٩٩. أنا وأخي وأختي، لدينا البطاقة الزرقاء لأنّنا تحصلنا عليها من جدي. لكن كان عليها عنوان جدي، ذلك المنزل الذي على أطراف القدس. أخبرني الطبيب أنّ بطاقتي الصّحية لم تعد صالحةً لأنّ التّدقيق عليها أثبت أنّه لا محلّ إقامة لدي في القدس. لا توجد أنشطة سائدة في القدس، ولا بطاقةٌ زرقاء، لذلك لا بطاقة تأمين، ولا مدرسة، ولا شيء. ذهبت فورًا إلى المؤسّسة الحكوميّة المسؤولة، ومنحتني فترة زمنيّة محدودة لإثبات أنّ مكان إقامتي ومعيشتي في القدس، وإلّا ستُنفَّذ عقوبة مصادرة جميع البطاقات. لحظتئذٍ، لم نملك أي خيار؛ فانتقلنا مع العائلة كلها الى شقّة صغيرة مستأجرة في القدس في غضون أيام قليلة، قريبة جدًا من بيت لحم، حيث يعيش جميع أصدقائنا، وأعمامنا، وجدّتنا». ميرا، مسيحية غير محجبة. جميلة جدًا وبشرتها حنطيّة ولها ذات النّظرة العميقة التي يمتاز بها جميع العرب. إنّها في عنفوان شبابها. أدهشني حزمها وتصميمها أثناء حديثها، وسردها الدّقيق كما لو أنّ كلّ شيء قد حدث البارحة. أصغيتُ إليها وفكّرت مرة أخرى في مدى صعوبة اتّخاذ موقفٍ صريحٍ بشأنِ كلّ شيء هنا. في هذه الحالة لا يسعني إلّا أن أرى وجهي العملة مرة أخرى. من ناحية، واضحٌ أن هناك أسرةً لا تمتثل للقانون، ولم تُنكر محلّ إقامتها الحقيقيّ، ربما لكيلا تفقدَ المزايا. ومن ناحية أخرى، واضحٌ أن هذا القانون جائرٌ، لأنه يفرض قيودًا صارمة، وعلى فئةٍ معينة من المواطنين؛ أولئك الذين لا يملكون إقامةً. الظُّلم: مثال نموذجي لكيفية سير الأمور في فلسطين.

والد ميرا مهندس، ويعمل في نفس الاستوديو مع شقيقه المعماري الذي لا يمكنه الحصول على البطاقة الزرقاء لأنه يعيش في بيت لحم. إنه أحد الأغلبية الذين

يملكون البطاقة الخضراء. هذا يعني أن ليس بإمكانه دخول القدس دون استخراج تصريح خاص. وينطبق ذلك على الأطفال الذين يعملون ويدرسون في بيت لحم؛ ولا يستطيعون الخروج من نطاق الأراضي الفلسطينيّة. «أعتقد أنّها وسيلة للتّحكم بنا جميعًا. إنّها نوع من التّصنيف؛ ليعرفوا كلّ شيء عنّا. إنّهم يكتبون دينك على البطاقة. ليحدّدوا أهليّتك في الذّهاب إلى القدس لقضاء الأعياد الدينيّة».

التّصاريح معضلةٌ. فعلى سبيل المثال، يذهب المسلمون يوم الجمعة إلى المسجد الأقصى في البلدة القديمة، ذلك الذي قبّته ذهبيّة جميلة، أمّا المسيحيين العرب أو الكاثوليك أو الأرثوذكس، فيذهبون إلى قدّاساتهم. النّساء فوق ٤٠ والرّجال فوق ٦٠ لهم استثناء. مدّة التّصاريح ٢٤ ساعة عادة، باستثناء حالات خاصّة: كالموظّفين الذين عليهم الذّهاب إلى هناك يوميًا: المعلمون وموظفو المكاتب العامة والدّراسات المهنيّة. في هذه الحالات يستمر التّصريح مدّة سنة واحدة مع إمكانية تجديدهِ، من الصّباح حتى اللّيل، مع الالتزام بالعودة. في هذا تعقيدات يومية لا نهائيّة. لذلك، عثر والد ميرا على حل جيّد. يأخذ والدها (البطاقة الزّرقاء) السيارة كل صباح ويذهب إلى منازلهم ويأخذهم إلى بيت لحم ويأخذهم إلى نقطة التفتيش، ثمّ ينزلون (البطاقة الخضراء)، ويجتازون نقطة التفتيش في أوقات متفاوتة حسب الطّابور وشدّة السّيطرة، وبمجرّد خروجهم يأخذهم إلى المكتب. يتكرّر هذا يوميًا.

مثل جميع الفلسطينيين، تقريبًا، عايشت ميرا أحداث الحرب. في بيت لحم، في نيسان/أبريل من سنة ٢٠٠٢، ظلت كنيسة المهد التي بها مغارة الميلاد والمِذود الذي ولد فيه يسوع المسيح بحسب الرّوايات، تحت الحصار أكثر من شهر. طورد مجموعةٌ من المُسلحين الفلسطينيين اتُّهموا بالإرهاب، ولجأوا إلى الكنيسة. قبل أسبوع واحد فقط من تفجير انتحاري بفندقٍ في نتانيا(14) السّياحيّة السّاحليّة الهانئة، حيث كان النّاس على وشك بدء عشاء عيد الفصح. قضى ٢٨ شخصًا نحبهم. أدّى الهجوم الذي جاء بعد عدة هجمات انتحاريّة أخرى، إلى إعادة احتلال مُدن الضّفة الغربيّة الرّئيسةِ، بما فيها بيت لحم. جاء ذلك ردًّا على سلسلة تفجيرات انتحاريّة في المطاعم والحافلات نشرت الموت في المدن «الإسرائيلية» في الأشهر السّابقة. قرّر الرّهبان الفرنسيسكان الأربعون الذين يحرسون كنيسة المهد توفير المأوى للمقاومين.

تريد السّياسة المسيحية في الأراضي المقدسة أن تكون محايدة، لكن لا يمكن إخفاء التّضامن مع القضيّة الفلسطينيّة بتاتًا. وافق الجنود «الإسرائيليون» على الالتزام بحظر انتهاك الأماكن المُقدّسة، لكنّهم حاصروها. لا أحد يستطيع الدُّخول أو الخروج من هذه الأماكن. الطّعام والماء شحيحين. الخُطّة واضحة، على غرار خُطط العصور الوسطى؛ سيخرج المُسلّحون عاجلًا أم آجلًا من فرط جوعهم. كتب مراسل إيطاليّ معروف: «أطلق القنّاصة النّار على أطفالٍ حاولوا التقاط بعض الحجارة في حديقة الكنيسة. إشارة على أن النّاس تضوّروا جوعًا. كان الوضع مأساويًا، حتّى بالنّسبة للرُّهبان». لعلّ فعلهم كان من قبيل الإحسان، من الصّعب تبرير تصرفهم. تمسّكوا بموقفهم، ورفضوا طرد الفلسطينيين الذين اتّهمهم عدوُّهم بالإرهاب. لطالما كانت الكنائس مكانًا للجوء، منذ أيام فيكتور هوغو وروايته (أحدب نوتردام) . انتهى الحصار بعد ٣٩ يومًا من المحادثات والمفاوضات. في النّهاية، تم التّحقُّق من وفاة ثمانية فلسطينيين. ووفقًا لشهود عيان، فالقوات المُسلحة «الإسرائيلية» سبب هذه الوفيات، كما ولحقت أضرارٌ أخرى جسيمة بالممتلكات الخاصّة وعشرات السّيارات.

في ذلك اليوم، يوم الأحد، وليمة للمسيحيين فقط؛ ليست لليهود ولا للمسلمين. ذهبت ميرا التي كانت تبلغ من العمر ١٣ سنةً، آنذاك، إلى بيت لحم كالمعتاد مع كامل عائلتها لزيارة عمّاتها وجدّتها، لكنَّ الانتفاضة الثّانية كانت قد اندلعت مؤخّرًا، ولم يعرف أيٌّ منهم أنَّ لواء مُشاة «إسرائيلي» قد احتلّ بيت لحم فعليًا للقبض على المقاتلين الفلسطينيين المطلوبين، وأنَّ العشرات منهم موجودون في كنيسة المهد. «أُخِذنا بغتةً إذ كنّا نتناول العشاء في منزل جدتي، حين علمنا من التّلفاز أنّه لا يُسمح لنا بالمغادرة. خضعنا لحظر تجوُّل دون سابق إنذار. لا يُسمح لأي شخص بالخروج من البيت، كما يُسمح لهم بإطلاق النّار علينا. فحُبسنا؛ أنا وإخوتي ووالدي، وعمّي مع زوجته وأولاده، والجدّة. عشرة أشخاص كلهم في دار واحدة مدّة أسبوعين. كان حظر تجوُّل شامل، ولم يكن هناك سِوى وقتٍ سماح بسيطٍ لشراء الطعام. سمعنا في أحد الأيّام صوت زمجرة هائلة. نظرنا من النّافذة، فشاهدنا دبّابة «إسرائيلية» تدهس سيّارة أبي المركونة خارج البيت. واصلت الدّبابة طريقها كأنّ شيئًا لم يكن». تتابع ميرا حديثها قائلة: «بعد اثني عشرَ يومًا، قرّرنا أنّه لا يمكننا البقاء هناك إلى أجل

غير مُسمّى. كانت سيّارة أمّي في المرأب، فركبناها جميعًا وقرّرنا المُخاطرة. وبقيادة جنونيّة عبرنا بيت لحم ووصلنا إلى نقاط التّفتيش لدخول القدس. هناك، أخبرونا أنّ بإمكاننا الخروج من المنطقة، لكن لا ضمانات للعودة إليها مرة أخرى؛ أي، أنّنا نجهل إذا كان بإمكاننا زيارة أقاربنا مرّة أخرى. وافقنا إذا لم يكن هناك وقت للتّفكير. قرّرت الحكومة تعويضنا بعد بضع سنوات عن السيّارة. مبلغ زهيد. حوالي نصف قيمتها الحقيقيّة آنذاك، لكنّنا لم نستلمه لأنّنا كنّا في بيت لحم تحت مسؤوليتنا».

لم يتجاهل الأدب الفلسطيني هذه الصّفحة المأساويّة من تاريخ فلسطين؛ ففي ذات الأيام التي حوصرث فيها ميرا ببيت أقاربها في بيت لحم، دوّنت الكاتبة الفلسطينيّة سعاد العامري(15) مذكّراتها أثناء حظر التّجول، بنفس السنة، وخلال الأسابيع نفسها، ولكن في رام الله. لا تكسب سعاد قوت يومها من الكتابة. لا تزال مُثقفة ذات شأن كبير، ومهندسة معماريّة، وتُدرّس في (جامعة بيرزيت) العريقة. كما أنّها خبيرة في الهندسة المعماريّة التّاريخيّة في الشّرق الأوسط، وقد درست في إدنبرة والولايات المتحدة الأميركية. ولدت في دمشقَ لأبوين منفيين من فلسطين بعد حرب سنة ١٩٤٨، لكنّها سلكت ذات المسلك الذي سلكه مُثقّفون آخرون مُشابهون في التّرحال من بلدٍ إلى آخر. عاشت في عمّان وبيروت والقاهرة. تخرجت في جامعة ميشيغان وتخصّصت في إدنبرة، ثم عادت في سنة ١٩٨١ إلى فلسطين؛ رام الله، ودَرّسَت في (جامعة بيرزيت)، وأصبحت مديرةً لـ(مركز رواق)(16) للحفاظ على الهندسة المعماريّة، وهي منظمة غير ربحيّة تهدف إلى حماية وترميم الفن والثّقافة والعِمارة الفلسطينيّة. كما شاركت في ترميم حوالي خمسين قرية تاريخيّة في الضّفة الغربيّة. اقترحت [الأديبة] سعاد العامري شراكةً مع إيطاليا للحافظ على بعض هذه القرى. إنّها مثقفة فلسطينيّة ذات شأن؛ كانت جزءًا من وفود السّلام في الشّرق الأوسط والولايات المُتّحدة الأميركية بين سنتي ١٩٩١-١٩٩٣، أصبحت كاتبةً بعدما جمعت مذكّراتها التي كتبها في فترة الحصار «الإسرائيلي» الشّهير لمقر عرفات في رام الله. مهندسة معمارية عشقت الكتابة، قد لا تكون ماهرة، لكنّ كتاباتها نابعة من قلبها، من حاجتها إلى سَرد تجربتها بمأساويّة. (شارون وحماتي) التي تُرجمت إلى ١١ لغة، و(إذا كانت هذه هي الحياة) هما أبرز كتبها والأكثر مبيعًا، ويغلب عليهما التّنذّر

والفِطنة حتّى في أتعس التّفاصيل. تقول سعاد العامري(17):

«عندما رفعوا منع التّجوُّل أوّلَ مرّة، في نيسان من عام ٢٠٠٢، علمت عن المُهلة من التّلفزيون بعد أن انتهت. لم يستطع أيٌّ من أصدقائي الاتصال بي، إذ كانت خطوط الهاتف مقطوعة في حيّنا الذي لا يبعد أكثر من كيلومتر أو نحو ذلك عن مقر عرفات المُحاصر. كان لدينا والحمد لله كهرباء على الأقل. لم تكن هناك كهرباء أو هاتف أو ماء، في المنطقة المحيطة مُباشرة بعرفات، حيث تعيش حماتي، أم سليم، التي يبلغ عمرها ٩١ سنة، كما أخبرتني عندما شاهدتها بعد اثني عشر يومًا...

وجدت نفسي ثلاثَ مرّات أمام الدّبابات «الإسرائيلية» وجهًا لوجه. ارتعدتُ خوفًا وقفلت عائدة، مسببة زحمة سير إذا حذت كثيرٌ من السّيارات الأخرى حذوي. بدت رام الله والبيرة ساحةَ حرب. انقلبت أعمدة الكهرباء رأسًا على عقب، وتناثرت على الطّريق عشرات السّيارات المفلطحة، وانتشر الزّجاج والحطام في كلّ مكان. أخيرًا تمكّنت من الوصول إلى بيت فيرا عبر البلدة التي أصبحت كالمتاهة. تعانقنا وبكينا وتحدّثنا معًا في الوقت نفسه. في تلك اللحظة بالذّات، ظهر نبيل وڤانوش. تعانقنا ثانية وكان أوّل شيء سألتني عنه ڤانوش: «هل صحيح أنّ الجيش «الإسرائيلي» اقتحم مؤسّستك رواق؟»، نظرت إليها وقلت: «أوه لا! من أخبرك بذلك؟»، قالت: «شاهدت شقيقة حلا الدّبابات «الإسرائيلية» بجوار مكتبك قبل يومين لكنّها لم تتأكّد من ذلك». يا إلهي! لا. كان علي أنْ أعيد التّركيز على مهمّتي الرّئيسة التي تقضي بالذّهاب لرؤية حماتي. نظرت إلى فيرا وقلت: «ياللا، فيرا، تانيا، علينا أنْ نذهب». ركبنا السّيارة. على مقربة من بيت فيرا رأيتُ ثلاث سيّارات، اثنتين سُوّيتا بالأرض تمامًا، والثّالثة مُحطّمة ومُستخدمة لسد الطّريق. استدرتُ بالسيّارة في وسط الطّريق ثانية...».

لكن لدى ميرا قصة عائلية أخرى لترويها؛ إنّها عن جدتها. وقعت أحداثها في يافا؛ الضّاحية المستقرّة للأغلبية العربية في «تل أبيب»، وهي المستوطنة الأصلية لـ«إسرائيل» الآنَ. كانت يافا الغنية والمزدهرة، لؤلؤة فلسطين، مسرحًا لأشرس المعارك خلال «حرب الاستقلال ٤٨» (كما يسميها اليهود)، سنة «النّكبة» (كما يسميها

العرب). للبلدة القديمة منظر رائع. ينبغي على السياح المُتوجّهين إلى «تل أبيب» مشاهدتها، ومشاهدة حي الفنانين ومتاجرهم، الشّوارع المتعرجة بين المنازل البيضِ، إنّها وجهةٌ تأسر الألباب على ساحل البحر الأبيض المتوسط. حتّى الجدّة، مثلها كمثل العرب التُعساء الآخرين في تلك السنة، قد أُجبرت على الفرار. وبحسب قصّة جدّتها (ولا إثبات إلّا رواية الحفيدة)، فإنّ الجنود «الإسرائيليين» قد قتلوا شخصًا، وربطوا جثّته بسيارة جيب وجرّوه عبر الشّوارع. كان الهدف ترويع السُكان وإجبارهم على مغادرة منازلهم والمكان، فهربت من منزلها مع أسرتها ووجدت مأوىً في مكان آخرَ لا يبعد كثيرًا عن أقارب آخرين؛ ثم توجّهت إلى بيت لحم. تزوّجت هناك. لكنّها لم تتمكّن من العودة إلى منزلها الأصلي في يافا، نهائيًا، بسبب قانون (أملاك الغائبين)(18) والذي أصبح المنزل بموجبه ملكَ الدّولة تلقائيًا. إنّها حيلة من حيل عديدة استُخدمت لتشريع طرد العائلات الفلسطينيّة التي عاشت هناك لعدّة قرون.

كان هذا قانون الطوارئ الذي أمضى رئيس الوزراء بن غوريون - أحد المؤسّسين، ووزير المالية إليعازر كابلان الذي كان ينوي الحصول على أصول وممتلكات اللاجئين الفلسطينيين الذين هُجّر مُعظمهم إلى الدُول العربيّة المجاورة. لم يُستثنَ والدُ جدّة ميرا. امتلك مئتي دونم من الأرض (ملاحظة: كل ١ دونم = ٠.١ هكتار [المُحرّر الإيطالي])، لكنّه فقدها بسبب هذا القانون. لقد كان يزرع فاكهة ممتازة ويتقاضى أجرًا جيّدًا. «آهٍ! أجل، ومن لا يعرف جريب فروت يافا الشّهير؟». انتقل كل ذلك إلى الدّولة الجديدة، بلا عودة. اليومَ أصبحت الأرض التي امتلكها جدها الأكبر ملكًا لمدرسة زراعية حكومية. لا يزال المنزل في مكانه. واجهَ الكثير من الأثرياء العرب الآخرين ذات المصير. على سبيل المثال، أولئك الموجودون في المُستعمرة الألمانيّة، وهي واحدة من أكثر مناطق القدس خصوصيّة. عندما خضع الجزء الغربي من المدينة للسّيطرة «الإسرائيلية» في سنة ١٩٦٧، اضطرّ الفلسطينيّون أصحاب المنازل الجميلة في المستعمرة الألمانية إلى المغادرة، ففقدوا ممتلكاتهم دون أي تعويض. بلغ عدد سكان يافا سنة ١٩٤٥ مئة ألف نسمة؛ منهم ٥٣ ألف مسلم، ٣٠ ألف يهودي، و١٧ ألف مسيحي. عندما وضعت الأمم المتحدة خطّة التّقسيم سنة ١٩٤٧، أوصت

بضمّ يافا(19) إلى الدّولة اليهودية. أشعلت موافقة الأمم المتّحدة على هذا القرار حفيظة العرب وحاول رئيسا بلديتي يافا و«تل أبيب» تهدئة الأهالي. تمكّن عمدة يافا يوسف هيكل عبر وسيط بريطاني من مهاتفة ديفيد بن غوريون الذي كان رئيسًا لـ(الهاغاناه)، (المنظمة العسكرية الصّهيونية المرعبة آنذاك)، لمحاولة إقرار اتّفاقية سلام مع «تل أبيب». لكن عارضه كلٌّ من بن غوريون وقائد المليشيا العربيّة في يافا. في البداية، كان تنظيم الدّفاع العسكري في يافا بين أيدي سَرية تتكوّن من حوالي ٤٠٠ مناضل شكّلتها (جماعة الإخوان المسلمين). في يناير، فجرت شاحنة مُفخّخة مبنى بلدية يافا الذي بناه العثمانيون، ممّا أسفر عن مقتل ٢٦ شخصًا. بدا أنّ السّائق كان يرتدي الزي الرسمي للفوج الملكي الأيرلندي. في أبريل، شنّت المنظمة العسكرية الصهيونية المتطرفة (إرغون) التي مارست القتال المُسلّح بكل الوسائل، بما في ذلك الإرهاب، شنّت هجومًا على يافا. بدأ ذلك بقصف بقذائف الهاون استمر ثلاثة أيام أُلقي خلاله عشرون طنًا من المتفجرات على المدينة. أمرت الحكومة البريطانية جيشها البريطاني بالتّصدي للإيرغون لكيلا تتكرّر الهجرة الجماعية التي حدثت في حيفا قبلها بأسبوع، فانتهى الهجوم. في الوقت ذاته، أطلقت الهاغاناه ما يسمى (بعملية شاميتز)، وغزت القرى الواقعة شرقي يافا، وعزلت المدينة من الدّاخل. نجحت هذه العملية، وحققت هدفها: فرار العرب. بدأ المدنيّون العرب ومجموعة متنوعة من المقاتلين غير المدربين مغادرة المدينة مذعورين. في ٣٠ أبريل، كان عدد السّكان الباقين بين ١٥ و ٢٥ ألفًا فقط. في الأيام التالية، فرّ ١٠-٢٠ ألف شخص بحرًا. عندما سيطرت الهاغاناه على المدينة، لم يتبق سوى ٤٠٠٠ شخص. تمركز السّكان العرب الباقون في حي العجمي بشكلٍ رئيس، محاطين بالأسلاك الشائكة، ظلّت الأحكام العرفية سارية سنةً كاملةً. في البداية، حاول عمدة يافا إقناع الناس بعدم المغادرة، لكنّه غادر المدينة مدة ثلاثة أيام، وعند عودته، أعلن أنّ المدينة ستُحتل قريبًا، ثمّ حزم حقائبه وسافر مع أسرته. وفقًا لشاهد عيان لا يزال على قيد الحياة، فإنّ النّاس قد غادروا بالسّفن والقطارات. فُتحت جميع المعابر إلى الدّول العربيّة، وتمكّنوا من المغادرة مجانًا. بعد أسبوع واحد، لم يبقَ هناك أحدٌ؛ القطط والكلاب فقط. نَزَحت العائلات القليلة المتبقية للعيش في بساتين البرتقال.

ظلّت هذه الصّفحة الدّرامية من شهادات الهزيمة الفلسطينيّة حيّة في أدبهم. (أرض البرتقال الحزين) رائعةٌ أخرى من قصص غسان كنفاني. يصفُ فيها هروب السُكان من يافا إلى مستقبلٍ مظلم، حاملين البرتقال الذي كان في حدائقهم كرمزٍ، وقد كان في قلوبهم أملٌ واهٍ بالعودة قبلَ تلفهِ:

«عندما خرجنا من يافا إلى عكّا لم يكن في ذلك أية مأساة (...) مهما يكن، ففي ليلة الهجوم الكبير على عكّا بدأت تتوضّح الصُورة أكثرَ فأكثر... ومضت تلك الليلة قاسية مُرّة بين وجوم الرّجال، وأدعية النّسوة... لقد كنّا أنا وأنت ومن في جيلنا، صغارًا على أنْ نفهمَ ماذا تعني الحكاية من أوّلها إلى آخرها... ولكن في تلك اللّيلة بدأت الخيوط تتوضّح وفي الصّباح، ساعة انسحاب اليهود متوعّدين مُزبدين... كانت سيّارة شحن كبيرة تقف عند باب دارنا.. وكانت مجموعة بسيطة من أشياء النّوم تُقذف إليها من هنا وهناك بحركاتٍ سريعة محمومة... كنت أقف مُتّكئًا بظهري على حائط البيت العتيق عندما رأيت أمّك تصعد إلى السّيارة، ثمّ خالتك، ثمّ الصّغار، وأخذ أبوك يقذف بك وبأخوتك إلى السّيارة، فوق الأمتعة، ثمّ انتشلني من زاويتي ورفعني فوق رأسه إلى القفص الحديد في سقف مقصورة السّائق حيث وجدتُ أخي رياض جالسًا بهدوء... وقبل أنْ أُثبّتَ نفسي في وضع مُلائم، كانت السّيارة قد تحرّكت... وكانت عكّا الحبيبة تختفي شيئًا فشيئًا في مُنعرجات الطّرق الصّاعدة إلى رأس النّاقورة (...) وعندما وصلنا إلى صيدا، عصرًا، صرنا لاجئين...»(20).

***

في قصّة (عام آخر) القصيرة، تتحدث كاتبة أخرى اسمها سميرة عزّام، عن امرأة مسنّة تخوض رحلة شاقّة على أمل «عبثي» برؤية ابنتها في فلسطين التي أصبحت «إسرائيل»، وبدأت في سَرد قصة حياتها لسائق سيارة الأجرة التي كانت تقلها؛ وبدأ صبره في النّفاد. وُلدت سميرة في عكا، فلسطين، -وهي قلعة محصنة جميلة بجوار البحر، تَنافس عليها الصليبيون مرارًا وتكرارًا، وضُمّت سنة ١٩٤٨ إلى «إسرائيل»- ثمّ آلَ بها المطاف في مخيم للاجئين في لبنان. عملتْ معظم حياتها صحفيةً في الإذاعة، وفي العمل الحر، وكتبتْ قصصًا قصيرة. قصيرة جدًا دائمًا، ودقيقةً، معظمها

عن شتات شعبها. تعكس قصصها معرفتها العميقة بالعالم العربي، بتصويرٍ ماهرٍ وذكي مفعم بالحزن.

«كان بيتنا في (درج القلعة) وكانت لنا بيارة برتقال ثمرها لامع كالذّهب موصوف بالحلاوة، كنّا من الأوادم بيتنا (مضافةٌ) وزوجي مختار، هذه هي العادة يا ابني، المُختار يستضيف الأغراب، وكنّا نطبخ وننفخ وما تنقطع عن بيوتنا رجل... يقولون الملابس عزيزة هناك، فهل سمعت شيئًا من هذا؟ والبيض يا ابني مقطوع، هكذا فهمت من أناس ذهبوا إلى القدس في السنة الماضية واللحم نادر... وكنت أحب أنْ أحمل لها لحمًا غير أنّني أخشى أنْ ينتن... إنّ قلبي يطير وما أريد شيئًا أكثر من أنْ تنقضي الليلةُ بسرعة، وأجد سيّارة تحملني إلى القدس وسائقًا ابنَ حلال مثلك، سأقبّل ماري فلا أشبع وأشمُّها فلا أكتفي وأسألها حتّى يجفّ ريقي، سأسأل عن يافا فقد تكون زارتها.

تُرى كيف صار بيتُنا؟ ألا يزال قائمًا؟ مَن مِن قومنا هنا ومَن نزح منهم... وبيارتنا هل ذاقت من برتقالها؟ والكنيسة؟ ألا يزال الخوري إبراهيم راعيها... وصاحباتي سارة وأم جميل ومريانا... أما زلنَ من بناتِ الحياة؟».

***

قانون (أملاك الغائبين) عبارة عن ثغرة قانونيّة لطرد الفلسطينيين من منازلهم. يمكنك أن تعد على أصابع اليد الواحدة عدد الحالات التي كانت فيها مثل هذه الممارسات مخالفة للقانون، بكل ما حدث فيها من هدمٍ للمنازل، وغارات ليليّة، وتدميرٍ لحقول الزّيتون. أرست الدّولة الجديدة منذ تأسيسها قوانينها من الصّفر لغرض وحيدٍ، هو حماية أمنها على حساب المساواة في الحقوق؛ مثل البطاقات الخضراء والزرقاء. باختصار؛ المصلحة الوطنيّة. كل الشّعب؛ كل ما يفعله البيروقراطيون ورجال الشُّرطة والقُضاة لا يمكن المساس به وهو في إطار القانون دائمًا، وليس أي قانون، قانون «إسرائيل» فقط. أيمكن أن تكون بعض الأفعال قمعيّة إذا لم تكن تمييزيّة؟ هناك إجابة واحدة فقط دائمًا: نحن نطبق القانون. ينطبق هذا أيضًا على قانون (أملاك الغائبين) الذي ساهم بشكلٍ حاسم في تحديد

التّخلي القسري عن الأراضي، ولكن بشكل قانوني تمامًا. لعب هذا التّخلي الكبير عن الممتلكات العربيّة دورًا رئيسًا في استيطان مئات الآلاف من المهاجرين اليهود الذين وصلوا إلى «إسرائيل» منذ إعلان قيام الدّولة الجديدة في مايو من سنة ١٩٤٨، فأُنشئت ٤٧ مستوطنةً ريفيّة جديدة في مواقع القرى العربية المهجورة، واستوعبت ما لا يقل عن ٢٥ ألف مستوطنٍ منذ أكتوبر من سنة ١٩٤٩. لا يزال من المدهش أن قانون (الطوارئ) المُتعلّق بممتلكات الغائبين، ذلك القانون الذي صادرَ أصول جدّة ميرا كتدبيرٍ من تدابير الحرب، لا يزال ساريًا في «إسرائيل» بعد ستين سنةً.

تقول ميرا: «اشترى أبي قطعتي أرضٍ منذ عشر سنوات تقريبًا في القدس على مقرُبة من البيت الذي عشنا فيه. كان يُخطّط لبناء بيتٍ نرثه منه؛ نحن الأطفال. كان قد اشتراهما من امرأة سافرت لتقيم في الولايات المتحدة، ففقدت هذه الفلسطينية: الجنسيّة والبيتَ وجميع حقوقها. اشترينا الأرض، وطلبنا تصريح البناء، لكن مرت إحدى عشرة سنة ولم نحصل عليه. تكمن المشكلة في أنّه عندما غادرت تلك المرأة البلاد، قد فقدت جميع ممتلكاتها لصالح الدّولة. بعض الإجراءات سارية، ولكن فقط فيما يتعلق بإحدى قطعتي الأرض».

وفقًا للمؤرّخين، فإنّ هذا القانون ليس القانون الوحيد الذي استولت المؤسّسة القانونيّة من خلاله على الأراضي بشكل «قانوني»؛ فثمّة قوانين أخرى. الأكثر ذكرًا هو قانون الأراضي العثماني الذي يعود تاريخه إلى سنة ١٨٥٨. قديم، ويعود تاريخه إلى حقبة العثمانيين؛ لكنّه يُلائم مُبتغاهم. يكمن الإشكال في أنّه يكاد يكون من المستحيل على الفلسطينيين إثبات ملكيتهم للأراضي؛ لأنّه خلال الحكم التُركي الطويل، لم يسجّل العديد من المالكين ممتلكاتهم تجنُّبًا لدفع الضّرائب، أو لتجنُّب أداء الخدمة العسكريّة، أو للحفاظ على نظام الملكيّة الجماعيّة الذي أطلقوا عليه اسم (المشاع). وفقًا لقانون الأراضي العثماني، وبما أنّ «إسرائيل» أعادت استخدامها، فإنّ جميع الأراضي تُعتبر ملكًا (للدّولة) حتّى ثبوت العكس. يجب زراعة الأرض مدة ثلاث سنوات على الأقل لتسجيلها كملكيّة خاصّة رسميًا. إذا لم تكن الأرض مُسجّلةً، فيمكن اعتبارك مالكًا لها إذا زرعتها ودفعتَ الضّرائب، ولكن إذا لم تزرع الأرض مدة عشر سنوات(21) متتالية، فإنّها تصبح مملوكةً للدّولة. وقد استغلّت «إسرائيل» حقيقة

أنّ أجزاء صغيرة فقط من الأرض الفلسطينية آنذاك كانت مسجلةً رسميًا لمالك مُعيّن خلال فترة الحكم العثماني. هذا يُعلل سبب سهولة مصادرتها. استُخدمت معظم تلك الأراضي لبناء مستوطنات يهوديّة:

وفقًا للرّئيس السّابق لإدارة الخدمات المدنيّة في مكتب المدعي العام للدولة، بليا البيك، فإنّ ٩٠٪ من المستوطنات قد بُنيت على الأراضي التي أُعلن أنّها (أراضي الدّولة) على أساس قانون الأراضي العثماني. بالإضافة إلى ذلك، وبما أن الكثيرين لم يتمكنوا من إثبات ملكيتهم رسميًا لأراضٍ كانت لهم لقرونٍ، فقد طعنوا في الأحكام بعد تطبيق قانون الدولة على أراضيهم، وقد رفضت المحكمة العليا الطّعون، لأنّهم وفقًا للمحكمة العليا لم يتمكنوا من إثبات تعرضهم للضّرر. ذرٌّ للملح على الجرح!

الفصل الرّابع

تهجيرُ المسيحيين

صحيحٌ أنّ المسيحيّة دينٌ عالمي، لا يرتبط بأيّ بلدٍ، وأنّ مُتَّبعيه **«يَسجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالحَقِّ»** [يو٤: ٢٣]، لكنّه قائمٌ أيضًا على كشف تاريخي. إضافةً إلى (تاريخ الخلاص) هناك (جغرافيا الخلاص). ولهذا السّبب، فإنّ للأماكن المُقدّسة قيمةً عُظمى لدعم الإيمان، ممّا يسمح للمسيحيين بتواصلٍ مُباشر مع البيئة التي فيها **«الْكَلِمَةُ صارَت جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنا»** [يو١: ١٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤﴾

[المائدة:٨٢-٨٤].

شَعْرُ الأب فراس أسودُ اللون، وبشرته مُسمرّة، وعيناه لامعتان، وأسلوبه في الكلام لطيفٌ. فراس شاب ولد في الأردن، وهو راعي قرية عابود وهي قرية لا تبعد الكثير عن رام الله، العاصمة الاقتصادية والسياسية والإدارية لفلسطين. كانت مسيحيةً في الغالب حتّى سنوات قليلة مضت. لم تعد كذلك الآن لأسباب مختلفة. حدث ذات الأمر في جميع أنحاء فلسطين؛ فعدد المسيحيّين آخذٌ في النُّقصان، ومكوّنهم معرّضٌ لخطر الزّوال. كانوا يُشكّلون ما نسبته ١٠٪ من السكان تقريبًا قبل قيام «إسرائيل».

Telegram:@mbooks90

قرية عابود منطقة جغرافيّة جيّدة لفهم تهجير المسيحيين؛ غير أنّ في الوصول إلى القرية شقاءً رغم أنّها ليست نائية. عليك أن تجتاز نقطتي تفتيش: الأولى كبيرة عند مدخل رام الله، وأخرى تتبعها بالقرب من مستوطنتين يهوديتين. هناك لوحة في الشّارع للتّذكير بمستوطنٍ مات قبل سنوات. حادثة تسببت في إغلاق طريق الوصول إلى المستوطنة زمنًا طويلًا. ٦٠ كم منهِكة. صحبتني إلى هناك مجموعةُ شبابٍ إيطاليين من (فريق الأمل)، إذ عقدوا علاقة تعاون وطيدة مع سكان القرية لسنوات. لقد توصّلوا إلى مشروع أطلقوا عليه اسم (مشروع الصّابون) الذي يدعم المجتمع المحلي في إنتاج الصابون المصنوع من زيت الزّيتون الذي تُنتجه الأُسَر منزليًا وبطريقة فرديّة، وبالتّالي يحاول الفريق ضمان استمراريّة واستدامة هذه الحِرفة. اشترى الفريق وتبرّع بالمعدات اللازمة لإنتاج الصابون الذي يُروّج له بعد ذلك في الخارج وفي الأسواق من الأبرشيات الأكثر تأثُّرًا بالقضيّة. ثم أرادت المجموعة تحقيق قفزة نوعيّة بمشروع أكثر طُموحًا يهدف إلى وقف نزوح العائلات والشباب المسيحيين. دافعها الأول هو: الجدار. يقول الأب فراس أثناء زيارتي لحجرته الخاصة يوم الأحد، بعد القداس في الكنيسة المزدحمة: «لم يعد بإمكان أي فلسطينيّ دخول الأراضي «الإسرائيلية» بحُريّة». كان بوسعهم التّنقل بحريّة قبل سنة ٢٠٠٢. ذهبَ الكثيرون للعمل والدّراسة في «إسرائيل» وكسبوا أجرًا جيدًا. حصل الشّباب الذين تعلّموا تعليمًا جيّدًا على فرص عمليّة جيّدة أيضًا. اليومَ، يتعلّم الأولاد في المدرسة لمدة تصل إلى ١٥ سنةً، ثم يجدون عملًا في رام الله، لكن الانتقال إلى رام الله يكلف ١٨ شيكل، بالإضافة إلى عشرة شيكلات للأكل. الأجر هو ٥٠ شيكلًا يوميًا (ملاحظة: حوالي عشرة يورو، [المحرر الإيطالي])، فيتبقّى عشرون شيكلًا للملابس والطعام والكهرباء والماء. يستذكر الأب فراس أصعب السّنوات، فيقول:

«صاحبَت بناء الجدار مظاهراتٌ احتجاجيةٌ عنيفة، ولهذا أحضرت بعض أبناء رعيَّتي إلى هنا، وشرحت لهم بوضوح: علينا أن نكون مسالمين لأنَّنا مسيحيُّون، يجب أن نجد طريقة للتَّعايش. في سنة ٢٠٠٢، بعد اندلاع الانتفاضة الثَّانية، حدثت عمليَّاتُ اعتقال. توجَّهتُ إلى القائد «الإسرائيلي»، وأخبرته أنَّ قريتنا من أهدأ القرى، ففهم كلامي، ولم يعد البتَّة. «لكنَّ بناء الجدار مَضى على قدمٍ وساق». ما رأيي في الجدار؟ إذا كانت غايتهم الفصل؛ فقد نجحوا. لا أعتقد أنَّ المشكلة تكمن في ترسيم الحدود؛ بل في نهب الأراضي. هناك قول مأثور في فلسطين: «يموت لك ولد، ولا تموت لك شجرة زيتون». تعتبر الأرض الزِّراعيَّة مصدرَ الرِّزق الرَّئيس للفلسطينيين. تبلغ مساحة أرضنا ٦٠٠٠ مترٍ مربعٍ. ثمَّة مستوطنتان هنا: بيت عنيا(22) وهي مستوطنة تاريخية منذ سنة ١٩٨٢، وعوفاريم(23)، التي شُيِّدتْ بعدها بعشر سنوات. تشغلانِ معًا مساحة ١٥٠٠ مترٍ مربع. التَهَم «الجدار» ٥٠٠ متر مربع أخرى، انتقلت حيازة ٣٠٪ من مجمل الأراضي المشتركة إلى آخرين.

«إذا تكلَّمنا عن المسيحيين في الأرض المقدَّسة، فيجب أن نتكلَّم عن الفرنسيسكان؛ فتاريخهم مثير للإعجاب، جدًّا، حتَّى بالنسبة لغير المسيحيين. إنَّهم موجودون هنا منذ قرون، منذ زمن الحروب الصَّليبيَّة، وما زالوا يقاومون رغم كل شيء. هذه إشارة جليَّة على الارتباط الوثيق بهذه الأماكن. في الحملة الصَّليبية الخامسة، لم يستطع فرانسيس الأسيزي، البالغ من العمر ٢٥ سنةً، البقاء بلا حراك إزاء ذبح الأهالي وتدمير الأرض التي ولد فيها المُخلِّص. أثناء الحصار على مدينة دمياط المصريَّة، أبحر من [ميناء] أنكونا [في إيطاليا] برفقة راهب مستنيرٍ، وكان قد تحصَّل على إذن من المندوب البابوي (البرتغالي بنديكتين بيلاغيوس غالفاو، الكاردينال ألبانو) ليتمكَّن من اجتياز الأراضي الإسلاميَّة، دون سلاحٍ، وعلى مسؤوليَّته الخاصة للقاء السُّلطان الأيوبي الملك الكامل؛ ابن شقيق صلاح الدين. الهدف؟ أمرٌ لم يدركه أحدٌ غيره: التَّبشير بالكتاب المقدَّس وتنصيرِ الملك وجنوده، ووقف العنف. ما حدث مجهولٌ فعلًا. تذكُر بعض الرِّوايات أنَّ الجنود المسلمينَ أساؤوا معاملته، بينما تذكر روايات أخرى أنَّه قد أثار إعجاب السُّلطان الحكيم الذي عامله بتوقيرٍ ووهبَه الكثير. كان فرانسيس، بالتَّأكيد، رسولًا نموذجيًّا للحوار والاحترام بين الثَّقافات المختلفة،

ولديه الكثير ليقوله. كان ذلك في سنة ١٢١٩.

في سنة ١٢٦٣ أعيد تنظيم مقاطعة الأراضي المقدسة إلى كيانات أصغر، شقيت (حراسة)(24) لتسهيل أنشطة الفرنسيسكان. هناك (حراسة) في قبرص وسوريا والأرض المُقدّسة. وشملت هذه الأخيرة أديرة القدس ومدينة عكا السّاحلية وأنطاكية وصيدا وطرابلس وصُور ويافا. عندما سقط آخر قائد صليبيّ في عكا بين أيدي المسلمين، واصل الفرنسيسكان الذين لجأوا إلى قبرص التخطيط للتّبشير في القدس وغيرها من الأماكن الفلسطينيّة المقدّسة وبجميع السُبل الممكنة. منح البابا يوحنا الثاني والعشرون الصّلاحيّة إلى وزير الأراضي المقدسة الإقليمي لإرسال اثنين من إخوته إلى الأماكن المقدسة سنويًا. يعود الفضل في العودة النهائية للرُهبان الفرنسيسكان إلى الأراضي المقدسة لملك نابولي (روبيرت من انجو)، والملكة (سانشا من مايوركا). إذا حصلا من السُلطان [النّاصر محمد بن قلاوون] في مصرَ سنة ١٣٣٣ على كِنيسةِ العشاء الأخير، والحقّ بممارسة الطقوس في كنيسة القيامة. من ضمن بنود الاتّفاق أن يكون الإخوة الأصاغر الفرنسيسكان فقط مَن لهم حقّ الحفاظ على الأماكن المقدّسة باسم المسيحيين الغربيين. من الناحية العملية، بما أنّه يحظر على مسيحيي روما دخولها باعتبارهم أعداء لدودين، منح السُلطان الفرنسيسكان، ولهم فقط، حقّ إقامة ممثل البابا وأتباعه في الأرض المقدّسة. تحصّل ملك وملكة نابولي على الموافقة الرّسميّة من الكنيسة، وزُوّد الكيان الجديدُ بالمؤونة. يمكن للرُهبان المُعيّنين في الأراضي المقدّسة القدوم من جميع المناطق وبمجرد وصولهم إلى الأرض المقدسة، أضحوا تحت سلطة (حارس جبل صهيون في القدس)، وما زالوا الوحيدين الذين يمثلون الكنيسة في تلك الأماكن.

توجّهتُ إلى (حراسة الأراضي المُقدّسة)، ولم يكن يسيرًا العثورُ عليها. إنّها تتوسّط مدينة القدس القديمة تمامًا، لكنّها مُتوارية بعض الشّيء. كانت تحرس كنيسة الأماكن المقدسة في الشّرق الأوسط منذ قرون. في فلسطين بشكلٍ رئيس، ولكن أيضًا في لبنانَ ومصر وسوريا والأردن وقبرص و[جزيرة] رودس. تقع (البوّابة الجديدة) خلف إحدى البوّابات الأربعِ للمدينة. في الواقع، ذهبتُ إلى هناك أكثر من مرّة لمقابلة (حارس جبل صهيون في القدس)، وهو راهب فرنسيسكانيّ بلا شك.

اسمه الأب بييرباتيستا بيتساباالا، كان لديه أكثر من تفويض، ممّا يخبرنا الكثير عن قدراته. الجزء الدّاخلي من الحراسة فخم. أرضيّات رخاميّة لامعة كأنّها مَرايا، وثمّة سلّم كبير للصُعود إلى المكاتب. يقع في الجوار (كازا نوفا)، دار الضّيافة التي جارَ عليها الزّمن، وهي مبنىً ذو قيمة تاريخيّة يقطنه الحجّاج المسيحيُّون طوال شهور السّنة. يبدو الأب بيتساباالا رسميًا جدًا وهزيلًا. له قامة مديدة يبرزها الرّداء البني الذي يغطيه حتى أخمص قدميه، ولحية بيضاء، كما يرتدي نظارات أخفت جزءًا من وجهه. كونه من مدينة بيرغامو [الإيطاليّة] مثلي، فها يعني تآلفي الفوري مع سلوكه، وحزمه، وإجاباته الموجزة المقتضبة التي في صُلب المسألة من وجهة نظري، كما أنّه يمتلك قدرة دبلوماسية لا غبار عليها. نحن في خضم أزمة الرّبيع العربي الرّهيبة في سوريا، البلد الذي يشكّل جزءًا من سلطتكم، ويدعم كثيرٌ من مسيحيّيه النظام في دمشقَ. بعد التفكير في كلامي، قال: «لأنّه يحمينا دائمًا!». مسألةٌ شائكة؛ فانتهى الحديث. ما الذي يمكن قوله أكثر من ذلك؟ استجدّت قضيّة تدعو إلى التّمعن فيها في المرتين اللّتينَ قابلته بهما في حجرتهِ الخاصة.

تناقصَ عدد السُكان المسيحيين في الأراضي المقدّسة، وهناك خطر يتمثل في اختفائهم كمكوّنٍ فلسطينيّ على المدى الطويل. همّش دستور دولة «إسرائيل» الجديدة المسيحيين، كما همّشتهم الغَلَبة العددية والثّقافية للعرب المسلمين ممّا دفعهم إلى النّأي عن القُرى الفلسطينية. يواصل المسيحيون العرب مغادرة فلسطين، وتلك ظاهرة مقلقة، حسب قوله. في غزة ألفان أو ثلاثة آلاف مسيحيّ من أصل مليون ونصف شخص، ويبلغ عددهم في بقية الأراضي نحو ٤٠ ألفًا، مقابل ستّة ملايين يهودي وثلاثة ملايين مسلم في «إسرائيل». إنهم أقليّة، لكن وجودهم يظلُّ ذا أهمية كبرى، حتّى لدورهم كحاجز أعزلَ في الصّراع. كما أنّ جميع الطوائف المسيحية المختلفة حاضرة هنا، والتي تمثل قبل كل شيء شهادة ثقافية وأدبية وليتورجية قديمة جدًا. وبدون هذا الحضور لن يكون للمسيحية أيُّ أصلٍ تاريخي.

سألته عن أهميّة أنْ يكون المرء مسيحيًا في الأرض المقدّسة اليومَ. وقال: «هذا يعني التّعبير عن نفسك في الحياة اليوميّة من خلال تعزيز الحوار والاستماع والتهدئة». بدا الأمر كما لو كنت أستمع إلى أسقف ميلانو السابق الكاردينال كارلو

ماريا مارتيني، صديق الأب بيتساباالا الذي اختار أن يقضي هنا سنوات حياته الأخيرة. لكن السّبب الرّئيس لهذا «التّهجير» لا يزال اقتصاديًا. في بيت لحم – التي كانت دائمًا منطقةً مسيحيّة- الأمور أفضلُ قليلًا بالنّسبة للحجّاج المسيحيين المُتوافدين، لكنّ البطالة في الضّفة الغربيّة مرتفعةٌ، رغم أنّ الأرقام تشيرُ إلى نمو اقتصادي. سألته عمّا إذا كان ما يقوله البعض عن وجود ترهيب من قبل الفصائل الإسلامية المتطرفة صحيحًا، فأجاب: «يرجع الانخفاض في عدد المسيحيين إلى هجرتهم، وإلى إنجابهم عددًا أقل من الأطفال مقارنة بالمسلمين. فيما يتعلق بعلاقاتهم، هناك من يقول بوجوب محاولة العيش معًا بسلام، وهناك من لديه مخاوف. لكنّ أسوأ شيءٍ هو أن الطبقة الوسطى قد اختفت، وبالتّالي تزعزعَ النّسيج الاجتماعي الفلسطيني».

ثُمّ علينا ألّا ننسى دور الجدار الذي عارض المسيحيُّون بناءه علانية. وأضاف: «إذا كان الهدف منه وقف الهجمات فقد تحقّق ذلك. انخفضَ عدد الهجمات لأنّ الكثير قد تغيّر في القيادة الفلسطينية؛ أصبحت الآنَ هي أيضًا تدينُ «الإرهاب»، ولكنّ الثمن كان باهظًا جدًا؛ ولّد الجدار استياءً وإحباطًا وصدعًا بين الشعبين يصعب رأبه. شيءٌ واحدٌ مُؤكّدٌ: قد يحل الجدار الإشكاليّة الأمنيّة مؤقتًا، لكنّه لن يكون حلًا نهائيًا لها. سيتوجّب عليهم إيجاد طريقة أخرى لضمان الأمن عاجلًا أم آجلًا، مع مُراعاة حقّ المواطنين الفلسطينيين في الحصول على حياة طبيعيّةٍ». وقد تسبّب الجدار، حتّى لو كان بشكلٍ غير مباشر، في نزيف كبير للوجود المسيحي الباقي، والضّئيل في عدده، والمهم رمزيًا في المنطقة. تخلّى الأب بيتساباالا عن حياديّته هنا، واتّخذ موقفًا: «إذا كانت «إسرائيل» مُحقّة في مطالبتها بالدّفاع عن شعبها من الهجمات «الإرهابيّة»، مع بناء هذا الجدار وتنفيذ إجراءات أخرى، فمن المؤكد أنّ حياة الفلسطينيين قد أصبحت أسوأ بكثير. إضافةً إلى صعوبة الانتقال إلى داخل الضّفة الغربيّة، هناك العديد من القيود التّمييزيّة المفروضة عليها. دخول العرب إلى «إسرائيل» محدود، وأصبحت الحركة داخل الضّفة الغربيّة صعبة للغاية، ممّا جعل العمل مسألةً صعبة، ولهذا يغادرون إلى الأردنّ أو سوريا أو الإمارات العربيّة المتّحدة أو الكويت أو أوروبا. تهجيرٌ يشمل العرب المسيحيين، إضافة إلى الضّغط الذي

تسبّبت به زيادةُ عدد السّكان المسلمين». قرية عابود مثال على تهجير المسيحيين من الضّفة الغربيّة. ربما من الأفضل أن نقول إنّها كانت القرية الوحيدة ذات الأغلبيّة المسيحيّة من بين عشرين قرية أخرى ذات أغلبيّة مسلمة. ومنذ سنة ٢٠٠٢ وحتى يومنا هذا، انتقلت ٣٤ أسرة إلى رام الله بسبب البطالة أو التّشرد. لكن المشكل الرّئيس هو إقناع العديد من الشّباب الرّاغبين في المغادرة بالبقاء. الخطر هو اختفاء الوجود المسيحي هنا على المدى الطويل. قبل بضع سنوات، أحصى الأب فراس ٨٧٢ فردًا من أبناء الرّعيّة، حوالي ٢١٠ أسرةً، والعدد آخذٌ في الانخفاض. كانت العائلات المسيحيّة الأولى أكثر من ثلثي السكان، لكنّ هذه النّسبة انخفضت لأن لديهم أطفالًا أقلّ، أو لأنّهم يغادرون. يفوق عدد الأسَر المسلمة عدد الأسَر المسيحيّة الآن. نسب الأسرة والانتماء الدّيني عنصران جوهريّان يتميّز بهما سكان القرية. هناك عائلتان رئيستان ينحدر منهما جميع المسلمين والمسيحيين. في العائلتين المسيحيتين هناك كاثوليك وأرثوذكس، ونسلهم متساوٍ في العدد، في حين أن جميع المسلمين من الطّائفة السُّنيّة. هناك احترام وحوار مستمر بين المُجتمعين، على الرغم من عدم وجود فرص كثيرة للتعاملات واللّقاء. وفقًا للأب فراس فإنّ أبناء الدّينين يلتقيان في مناسبات خاصّة ومهمة جدًا بالنّسبة إليهم، مثل: عيد الفصح وعيد الميلاد ورمضان وكلُّ تجمّعاتهم الخاصّة كحفلات الزّفاف أو الارتباطات أو العزاء، مع احترام عادات الآخر دائمًا. نظرًا لأنّ القرية مقسّمةٌ إلى قطاعين بحسب الدّين: إسلامي ومسيحي، فهناك أشخاص يتاجرون من قطاع إلى آخر دون أي عوائق تذكر. يوجد أيضًا مقهى للإنترنت في وسط المدينة يديره شاب كاثوليكي يزوره المسلمون بشكل متكرّر، وهناك صداقات شخصيّة بين النساء المسلمات والكاثوليكيات اللّواتي غالبًا ما يشربن الشاي معًا، في منزل العائلة الكاثوليكية عادةً. ويرى الأب فراس أن هناك علامة مشجعة أخرى في العلاقات بين الدّيانتين بسبب التعاون القائم بين أساتذة مدرسة القرية المسيحيّة، والأساتذة المسلمين، وحيث تُمثّلُ الدّيانتانِ بالتّساوي بين الطلاب في المنطقة.

خلال زيارتي لقرية عابود، استضافني رضا شاهين (٥٥ سنةً) الذي ولد هناك ويعيش مع زوجته بهاء في منزلٍ متواضع شُيّد بالطوب الأبيض، مؤلّفٍ من طابق

واحد، على غرار جميع المنازل الأخرى في القرية. يمكن العثور على الماء حصرًا في بعض الأماكن؛ وخاصّة ماء الاغتسال. أثق في الأماكن التي تُبقي ممسحةً في دورة المياه، خاصّة عندما يكون هناك دش، حيث تحتاج إلى مسح المياه المتراكمة على الأرض. حُسن الضِّيافة والرَّغبة في المساعدة بجيناتهم كالعادة. يضحك رضا مع زوجته، ويشارك ضيفَه كلَّ ما يملك، في أفضل مثال على الكرم الفلسطيني. إنّه مسيحي، عربي مسيحي، له ابن واحد فقط يدرس الطب في الأردن، ومن المحتمل أن يبقى هناك بلا عودة إلى الضِّفة الغربيّة. هو أيضًا يؤكّد ما قاله الأب بيتسابالا عن الأرض المقدّسة وراعيها. كان رضا مالكًا للأراضي وثريًا إلى حدٍّ ما، وذا مكانة متوسطة الشَّأن، امتلكَ والداه وإخوته العديد من بساتين الزَّيتون.

أكتوبر هو شهر الحصاد، وكما في كلِّ سنة، ستجتمعُ الأسرة بأكملِها هنا لمدِّ يدِ العون. أمامي أحفادٌ مراهقون مفعمون بالنَّشاط، يركضون في البيت؛ ويفيضون لُطفًا مع الضُّيوف. قالَ لي بعد الانتفاضة الثّانية، قُطعت آلافُ أشجار الزيتون انتقامًا منّا، وكان بناء الجدار الضَّربة القاضية فخسرنا أراضينا. قُطعت ثلاثة آلاف شجرة زرعَ الرُّومان معظمها في قرية عابود. ضربةٌ موجعة تسبَّبت بضرر جسيمٍ لعائلته التي لم تتعافَ منها قطُّ. لكنه محظوظٌ؛ إذ لم يكن مضطرًا للذهاب إلى رام الله أو خارج البلد بحثًا عن عمل. إنّه يُدرِّس الرِّياضيات في مدرسة القرية المسيحيَّة، وهو يحبُّ عمله. «يجب أن نحب عملنا، لننجزَه بإتقانٍ. أكسب ٢٥٠٠ شيكلٍ شهريًا (ملاحظة: حوالي ٦٥٠ يورو. [المُحرِّر الإيطاليّ])، لكن الأهم من ذلك كله هو أنّي أحبُّ وجودي مع الأطفال. أغلبُهم مسلمون. العلاقات معهم ليست سهلة، نحن لا نخفي مشاعرنا، لكنّنا نحترم بعضنا. على سبيل المثال، في ديسمبر، خلال عيد القدّيسة بربارة؛ القدّيسة التي ولدت وتوفيت هنا وفقًا للإنجيل، نزورهم لتبادل الهدايا». زعزع الجدار مجتمع قرية عابود بأكمله. المسيحيُّون منهم خاصّة. وبشكلٍ عام، فقد العديد من العمّال الفلسطينيين وظائفهم في المصانع «الإسرائيليّة» وتعطّلت تنقُّلاتِهم إلى حدٍّ كبيرٍ. من ناحية أخرى، ارتفعت أسعار الأراضي؛ لأنّها أصبحت أكثر نُدرة. يمكن أن يكلف دونم من الأراضي للإنتاج الزراعي ٧-٨ آلاف دولار، و ٣٥-٦٠ ألفًا أخرى للمبنى؛ حسب الموقع وارتباطه بالطُّرق المؤدية إلى القرية. والحال هذه بوسعك أن تفهم جيدًا

كيف يحاول أولئك الذين بوسعهم الهروب إلى الخارج، متى استطاعوا. يحاول بعض النّاس كسب لقمة العيش من الزّراعة أو الأعمال التّجارية الصّغيرة، بينما يعمل آخرونَ في كلّيّات الطب أو في الجراحة. لقد أعاقَ الجِدار التّقدم المعتاد لإعادة التّحول الاقتصادي لجميع المجتمعات التي تمر بمرحلة انتقالية، أو مرّت بها، مثل المجتمع الفلسطيني. ذكر لي بعدها جميع المشاكل النّاجمة عن التغييرات الجوهريّة في المجتمع والاقتصاد، ولكن دون رؤية الثّمار. أضاف الأبُ فراس: «اسمح لي بتوضيح كلامي. من ناحية أخرى، يمكنك أنْ ترى التخلي عن القطاع الزّراعي الذي يعمل فيه الآن عددٌ قليل من السكان. ولكنْ، لا يمكن للأجيال الجديدة العثور على فرص عمل في القطاعات الاقتصادية الأخرى. هذا هو الإطار الذي تجد فيه هجرة كبيرة خاصّة للمسيحيين. في السّبعينيّات كان هناك حوالي ١٥٠٠ شخص في قرية عابود، ثلثاهم من المسيحيين، أمّا اليوم فيقطنها حوالي ٢٣٠٠ نسمة، المسلمون هم المسيطرون. (على المستوى الوطني، في ثمانينيات القرن الماضي، شكّل المسيحيُّون في الأراضي الفلسطينيّة ما نسبته ٥-٨٪، وبعد عشرين سنةً أصبحوا ١.٥-٢٪ تقريبًا)». لذا، حلَّ القرآن محلَّ الإنجيل. صحيحٌ إنَّ وجود المسيحيين هنا أقدم، وبالتّالي يجب أن تكون لهم علاقة أكبر بالأرض التي يمتلكون غالبيتها. ولكنهم الأكثر مغادرة. من ناحية أخرى، هناك مسلمون تُحوَّل لهم الأموال من أفراد الأسرة الأكبر سنًا الذين يعملون في دول الخليج لشِراء الأراضي؛ وهناك أيضًا مسيحيُّون يملكون الثّقافة والتّعليم ويمكنُهم المغادرة والعثور على عمل في مكانٍ آخرَ. في تلك الفترة الزّمنيّة، عزم ٣٨ شابًا على الزّواج لكنّهم لم يمتلكوا السّكن، فنُفِّذ مشروع (إصلاح المنازل والمساعدة في بنائها). من المفترض أنْ يُعادَ بناءُ عددٍ من بيوت قرية عابود، وبناء مساكنَ جديدة للأزواج المسيحيين الشّباب لوقف النُّزوح الجماعيّ. تقدّمت ١٨ أسرة بالفعل بطلب إعادة البناء، وبلغ إجمالي التّكلفة المقدّرة ٣٨ ألفَ يورو. بحثت رابطة وأبرشية عابود عن تمويل إيطاليٍّ للمشروع أيضًا. تستعين القرية بالمتطوعين الشّباب من الفريق الصغير، لكن في الضّفة الغربيّة وغزّة يمتد العمل التّطوعي إلى ما هو أبعد من هذه المبادرات العفويّة؛ فربما تشمل العمليات أكبر عدد من المنظمات غير الحكوميّة، بالنّظر إلى نسبةِ السّكان، في أي مكان آخر من العالم. فعلى سبيل المثال، بدأت منظمة سيسفي الإيطاليّة غير الحكومية (Fondazione CESVI)

مشروعًا للإقراض الصَّغير في قرية عنبتا شِبه الصَّحراويَّة والمُغبرَّة، في محافظة طولكرم، شمال غرب الضِّفة الغربيَّة، بالقرب من نابلس المضطربة وحدود الجليل. زرتها مع اثنين من ممثلي المنظمة. غادرنا من بوابة دمشق في القدس، ومررنا بنقطة تفتيش قلنديا، ثم سلكنا الطريق السَّريع العريض وشبهَ المهجورِ المُتَّجهَ نحو الشمال. المنظر الطبيعي الخلاب المعتاد: أرضٌ شديدة الانحدار وصخريَّة، تنتشر فيها أشجار الزَّيتون الخُضر، تحت أشعة الشَّمس المُبهرة، ممَّا يغرس في المرء شعورًا باللامحدوديَّة. يقعُ المتجر في شارع جانبي من القرية، ويمكن رؤيته بوضوح بعلامته الوردية الزَّاهية التي تمنح المكان حيويةً. تقدِّم المنظماتُ غير الحكوميَّة دعمًا أساسيًا للشَّركات والاقتصاد المحلي، فضلًا عن توفير العمل. المكتب ضروري للمجتمع والاقتصاد المحلي، كما أنهم يوفرون فرصَ عملٍ. يعمل في مكتب (سيسفي) بطولكرم أربع أو خمس نساء يوميًا، وبعضهن يعملن بعقدٍ مستمر طوالَ فترة المشروع. إنَّه شهر رمضان، ظهرًا في عنبتا، نشاط النَّاس التِّجاري بطيءٌ نهارًا بسبب أيام أغسطس الشَّاقة في فلسطين، حيث لا تتجاوز الأشجار ارتفاع أشجار الزيتون. افتُتح المتجرُ بفضل مشروع الإقراض الصَّغير. قطرةٌ في محيط من مشاكل تبدو ميؤوسًا منها ومستمرةً بسبب الجمود في المنطقة، ولكنَّها أيضًا الاستجابة الوحيدة الممكنة للأزمة التي تفاقمت بسبب قيود قائمة على التدابيرِ الأمنيَّة خلال هذه السنوات العشر. لدى المنظمَّة مشروعٌ متزامن آخرُ في قرية الطَّيبة، ليست بعيدة عن القدس، المدينة المسيحيَّة الوحيدة في المنطقة، والمعروفة بوجود شركةٍ تنتج البيرة. كما بدأ هناك مشروعٌ يتضمَّن إنشاء نظام متكامل لإدارة مياه الصرف الصِّحي لأغراض الرَّي الإضافي. وعلى العكس من ذلك، أُنشئت في طولكرم أربعة مراكز نسائيَّة تضم قرابة مئة امرأة من أربع قرى، يبلغ مجموع سكانها ٢٦٠٠٠ نسمة، نُشِّطت لدعم مبادرات الاقتراض الصَّغير التي يستفدن منها. شُكِّلت كتعاونية للمستهلك، مع ثلاثين عضوًا. تُودِعُ كلُّ امرأةٍ مبلغًا يعادل ٤٠٠ يورو للانضمام إلى العضويَّة. ويتألف دعم منظَّمة (سيسفي) من قرضٍ واحد لنصف هذا المبلغ، مع اشتراط أن تتنازل المرأة عن حصَّتها في حال انسحابها. كان الهدف هو تأسيس مركزٍ تُباع فيه منتجات أولئك النِّسوة اللائي يصنعنها في منازلهنَّ دائمًا؛ بأموال الأسهم. كما تُخصَّص إدارة المنظَّمة مبلغَ ٤٥٠٠٠ شيكل (حوالي ١٠٠٠٠ يورو) لتقديم

خمسة قروض فرديّة بمبالغ مختلفة. في المتجر، وهو عبارة عن بقالة صغيرة أنيقة، توجد ثلاث نساء من تعاونيّة عنابتا. نجاة: في السّتينيات من عمرها، ترتدي الحجاب وعباءةً سوداء مطرزّة تغطي قدميها كالأخريات. إنّها واحدةٌ من خمس حاصلات على القرض الفردي. تشرح بفخر وبأدق تفصيلٍ عملها في صنع المخللات. «تُترك قطع الخيار ٥٠ دقيقة في الماء البارد، ثم أضعها في برطمان مع ماء وفلفل. أضيف بعدها لترَ ماء مع ملعقتين ونصف ملعقة كبيرة من الملح، ثم أخلطها كلها بأوراق العنب وأغلق الغطاء. يجب أن يبقى مغلقًا مدّةَ يومين على الأقل في الصّيف ويومًا واحدًا في الشّتاء». نجاة خبيرة في التّخليل؛ كانت تقوم بهذه المهمة وتبيع إنتاجها بنفسها قبل التّعاون. لكن الانضمام إلى الجمعيّة مثّلَ ميزةً لها، لأنها كما تقول، تمكّنت من زيادة مبيعاتها والتّعرف إلى الجميع. ستستخدم القرضَ، مبلغ لا يُذكر (يعادل ٥٠٠ يورو) لشراء المنتجات والمواد للحفاظ على المخللات، وهو تخصُّص في المطبخ الفلسطيني.

هدى هو اسم مديرة الجمعيّة، ترتدي عباءة بيج خفيفة، تحظى بالاحترام، وتقول إنّها قد قبلت بالمنصب لأنّه يمنحها دورًا مهمًا واحترامًا أكبر. زوجها يعمل أيضًا؛ وهو حدّاد في القرية، ولهذا يعيشان في مستوى جيّد. راودتها بعض المخاوف عند الانضمام إلى الجمعيّة. كانت قليلة للجميع، لكنهن أدركن بعد ذلك أنّ فوائد ومتطلبات الاشتراك قد زادت. أمّا ثالث سيّدة فاسمها هناء، وهي أرملة لديها خمسة أطفال، وقد تقدّمت بطلب وحصلت على قرض قيمته ١٥٠٠٠ شيكل (حوالي ٣٧٠٠ يورو)، لبدء مشروع محطة غسيل سيارات على الطّريق إلى القدس مع أحد أبنائها. شاهدتها في طريق العودة، متداعية بعض الشّيء، وتشبه إلى حدّ ما ورشة عمل، لكنها ورشةٌ مليئةٌ بالأعمال. المستفيدات الأخريات، بإجمالي قرضٍ يبلغُ حوالي ٢٥٠٠ يورو، هنّ: إيناس التي كان لديها المال لشراء موادٍ لورشة من الأجهزة، وميسون، التي اشترت ثلاثة أغنام -بالضّبط ثلاثة أغنام- لمزرعتها. أمّا سلمى، فقد اشترت سلعًا لمتجرٍ منزليٍّ وسط القرية؛ وهو متجرٌ أنيقٌ مقارنة بالمعايير المحليّة، معروفٌ ويُبشر بعوائدَ عاليةٍ.

الفصل الخامس

«دير ياسين! دير ياسين!»

قصصُ المستوطنين

«رسالتُنا واضحة: نحن إذ نزرع شجرةً هنا، نؤكّد أنّنا باقون هنا، سنبني هنا. وأنّ هذا المكان جزءٌ لا يتجزّأ من دولة «إسرائيل» إلى الأبد».

بنيامين نتنياهو

خلال حفل غرس أشجار في المستوطنات اليهودية(25).

إنه يوم تجمع ديني يهودي في حبرون [الخليل]، ليس بعيدًا عن بعض المستوطنات اليهودية الأكثر ظهورًا في الإعلام. هناك نقطة تفتيش تسدُّ الطريق، وتوقف السّيارات حتى تلك التي تحمل لوحات «إسرائيلية» كالتي أستقلُّها. تحتل الخليل المرتبة الدّينيّة الثانية في الأهميّة لكلٍّ من اليهود والمسلمين، لذلك نجد فيها أكثر المستوطنات تطرُّفًا؛ هناك العديد من الشّهادات على غارات المستوطنين على القرويين الفلسطينيين. أمرَنا الجنود بالعودة، لكن بعد إلحاح بالسّماح لنا بالاستمرار، تواصلوا مع عسكريٍّ رتبته رفيعة، وجاء على متن سيارة جيب مُدرَّعة. تحقَّقوا من المستندات وطلبوا معلومات عن الرّحلة، رغم اطمئنانهم إلينا. لتجنُّب العودة والسير في طريق أطول بكثير باتجاه الغرب، رافقت سيارة جيب أخرى تابعة للشُّرطة الزُّرقاء سيارتنا خارج بعض القرى والمستوطنات السّاخنة. طوال الطريق، يمكن أن ترى على مدّ البصر، امتداد الجدار ثم المعبر إلى المدينة المقدسة عند اليهود، إنّه مفتوح للجميع حتّى للمسلمين. لذلك، فإنّ الإجراء هو الإدارة العاديّة للمكان. الخليل هي واحدة من المدن التي يصعبُ فيها التّعايش بين المستوطنين والفلسطينيين، وشوارع بيت لحم والجنوب هي من بين أكثر الشّوارع خضوعًا لحراسة نقاط التفتيش. يحدث ذات الأمر في المدينة القديمة، حيث يوجد المسجد الذي فيه قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب. يوجد في الخليل أحد أجمل الأسواق في كلّ فلسطين، وجميع المباني التي تكشف الأزقة بها زخارف عثمانيّة في كلّ مكان، ممّا يجعلها واحدةً من أجمل الأماكن في الشّرق الأوسط. في الأماكن المظلمة والأماكن الدّاخليّة الخانقة، لم يتبقَ سوى جزءٍ بسيط من السُّوق الكبير الذي كانَ موجودًا في الماضي؛ يتحرَّك الباعةُ العرب في الهواء الطّلْق الآنَ. طُردوا منها لعدم استقرارها واضطرابها. ذهبتُ إلى هناك سيرًا على قدميّ، ودخلتُ البلدةَ القديمة، وعند المدخل كان ثمّة جنود كالمعتاد، ببنادقهم الأميركية M4 والعديد من الشّاحنات المُدرَّعة التي تعرقل المرورَ. في أزقّة سوق العرب، ترى شباكًا موضوعة على الطريق لمنع سقوط القمامة التي يلقيها المستوطنون بانتظامٍ على رؤوس المارّة العرب. عند المخرج، ستجد نفسك أمام دفاع مُسلح عند مَدخل الحرم الإبراهيمي(26) -مركز التّعبُّد اليهوديّ والإسلاميّ، حسب المرويّات، فهو يشملُ مقابر إبراهيم وستّةٍ من أحفاده- حيثُ

أبراج المراقبة المحميّة بنوافذ زجاجيّة، وتحكُّم بعض الجنود بالمُصلّين والسُياح القلائل؛ وستدرك فورًا بأنّك في مكان خاصّ جدًا، إذ ستستشعر بعمقٍ قدسيّة المكان حتى وإنْ لم تكن لك علاقة بأيٍّ من الدّيانتينِ. تنتصر الألوان في الدّاخل؛ سواء في الفسيفساء على الأرض أو في الزّخارف. لكنّ المُرشد العربيّ يتجاهل الجانب الجمالي ويعيد السّردَ التفصيليّ، والعاطفيّ للغاية، لجميع مراحل المذبحة التي ارتكبها المستوطن اليهودي الأميركي، باروخ غولدشتاين في ٢٥ فبراير ١٩٩٤، خلال شهر رمضان: «لقد جاء من هذا الطريق، ثم وقف أمام ذلك العمود وبدأ في إطلاق النّار... هذا هو المكان الذي تم فيه تحديد موقع مطفأة الحريق التي أصيب بها، بينما كان لا يزال يقتل الناس...»(27).

أطلقَ غولدشتاين الرّصاص على المؤمنين المسلمين المُجتمعين لأداء الصّلاة، مما أسفرَ عن مقتل ٢٩ وإصابة عدد غير معروف. كان يوم احتفال بالنّسبة لليهود. أعتقد أن الغرض من المذبحة هو الانتقام لمقتل ٦٧ يهوديًا خلال الثّورة العربية خلال سنة ١٩٢٩. كان من الممكن أن يكون الموتى أكثر من ذلك بكثير، لو لم يوقف، ويُعدم دونَ محاكمةٍ.

لا يهودَ في شوارع الخليلِ. ولكنْ، في المستوطنات المجاورة ثمّة الآلاف. يسكنها ١٣٠ ألفَ فلسطينيّ، وهي مُقسّمة إلى منطقتين، يُسيطر فيها جنديٌّ واحدٌ على كلّ عشرة أشخاص. إنّها إحدى «المدن الأكثر توتّرًا» في المنطقة.

تقع مستوطنة (ألون شفوت) التي سأزورها مع مستوطنٍ يهودي- إيطالي في منتصف الطريق تقريبًا بين بيت لحم والخليل. للوصول إلى هناك، نسلكُ الطّريق رقم ٦٠ السّريع من القدس، ونقطع بيت لحم؛ الطّريق الذي بُنيَ خصيصًا للمستوطنين لتجنُّب تواصلهم مع الفلسطينيين. ليس بعيدًا عن العاصمة، فقط ما يقاربُ ١٥-٢٠ كم. حركة المرور نادرةٌ وتزداد في ساعات الذّروة. لا توجد طوابير للتفتيش في المساء بعد العودة من العمل.

الوصول إلى (ألون شفوت) سهل وآمن ومريح. المستوطنة جزء من كتلة استيطانية ضخمة، تتكون من ١٥ مستوطنةً، تسمى (غوش عتصيون). وتعني (ألون

شفوت) بالعبرية (بلوطة العودة)؛ وتُشير إلى شجرة مُعمَّرة كبيرة لا تزال موجودةً أمام المدخل الذي تسيطر عليه حانةٌ وحارس يحميه كشكه. شجرةُ البلوط تذكره بقتلى غوش عتصيون؛ اسم مُمجَّد في تاريخ بناء دولة «إسرائيل». قال بن غوريون –مؤسّس الدولة- ذات مرة إنّه «إذا كانت هناك قدس يهودية اليوم، فإنّ الشعب اليهودي مَدين بالامتنان أوّلًا وقبل كل شيء للمدافعين عن غوش عتصيون...».

قيلَ كلُّ شيءٍ عن الاستيطان والمستعمرات اليهوديّة في الضِّفة الغربيّة. تستنكر المواقع الإلكترونيّة والمدوّنات وخاصّة تويتر [المترجمة: منصة X اليومَ]، العنفَ اليوميّ وسوء المعاملة، مثل: السّرقة غير القانونيّة للمياه من طبقات المياه الجوفيّة في الأراضي الفلسطينيّة، وإلقاء الحجارة على الأطفال الذّاهبين إلى المدارس، وحرق المحاصيل الزّراعيّة. لعلّ وجود المستوطنين في أراضي الضِّفة الغربيّة هو العقبةُ الرئيسة الدّائمة أمام حلّ الصّراع مع الفلسطينيين. يعتبر الفلسطينيون أنّ المستوطنات غير قانونيّة –معظمها كذلك- بل وهي استفزازٌ لهم فوق كلّ شيء، وإهانة لسيادة أراضيهم ونهب تعسُّفي لتلك الأراضي ومواردها (ولا سيّما المياه).

نُوقشَ موضوعُ وقف بناء المستوطنات الجديدة عدّة مراتٍ، ولكن دون جدوى. من الصّعب ذكر بيانات دقيقةٍ لهذه المستوطنات: هناك ٣٠٠ ألف مستوطن «إسرائيلي» فيما يسميه الأرثوذكس يهودا والسّامرة، و٢٠٠ ألفٍ في القدس الشّرقيّة موزعين في اثنتي عشرة مستوطنةً. تتراوح أحجام هذه المستعمرات من مدينة صغيرة يزيد عدد سكانها عن ٢٥ ألف نسمة، إلى مقطورات معدودة في البؤر الاستيطانيّة، وهي بؤر استيطانية حقيقيّة أخلتها الحكومة في بعض الأحيان لإزالتها. بشكل أساسي، يمكن تقسيم المستوطنات إلى فئات مختلفة على أسس: الانتماء السّياسي، والدّيني، والانتقال من الأرثوذكسيّة المتطرفة إلى الأرثوذكسيّة الوطنيّة. يشرحُ أرييل الذي يرافقني: «هذه مستعمرة وطنية أرثوذكسيّة. على عكس الأرثوذكس المتطرفين، نشارك في حياة الدولة، ويؤدي أولادُنا الخدمة العسكريّة، ويَدرسون في الجامعات العامّة ويعملون مثل الآخرين. حياة الأرثوذكس المتطرفين مختلفة تمامًا؛ يرتاد أطفالهم المدارس الدينيّة فقط، ولا يخدمون في الجيش، ولا يهتمون بالعمل وصنع حياة عمليّة؛ هدفهم الأسمى هو تكريس أنفسهم تمامًا للحياة الدّينية. إنهم

لا يشاهدون التلفاز، ولا ينشرون صورًا للنساء، ولا يصافحونهنّ ولا ينظرون إليهنّ تجنُّبًا للإغراء بشكلٍ عام. زوجاتهم هن من يذهبن إلى العمل، وهنّ عادةً معلّمات وممرضاتٍ، في حين أن الأزواج الأرثوذكس المتشددون مكرسون تمامًا للدراسة والممارسات العقائدية. أرييل، الذي يرافقني، يهوديٌ في الأربعينيات من عمره، ولد في بادوا (إيطاليا) واستكمل دراسته الثانوية هناك، ثمّ جاء إلى «إسرائيل» وهو في (ألون شفوت) منذ سنة ١٩٩٩. إنّه شخصٌ هادئ ومتعلم وخفيف الظّل. تحصّل على بكالوريوس في التاريخ وهو مُتخصّص في الأرشفة، ويعمل أمين مكتبة في المكتبة الوطنيّة بالقدس. كما نشر مجموعة شعريّة، أهداني نسخة منها، تتحدّث عن المعاناة والذكريات والحنين إلى الحبّ المفقود؛ ربما لأنه منفصل، وقد فشل زواجه، وأولاده لا يعيشون معه. لكن في إحدى قصائد ديوانه (رخام الظلال)، يستحضر موضوعًا آخرَ: أوجاع حرب لا تنتهي بسبب «عمى وصمم القلوب» الذي يجعل الطّرف المعارض مثل ظلال الرُّخام.

هذا الصّيف

ينتهي

كما لو أنّ

شيئًا لن يتغيّر

المزيد من الحروب

المزيد من الدّماء

ذات الصّمم في القلوب

إذا انصهرت السّماء

وانتحبت

سنعرف أنّ العهد قد تجدّد

أعمته الشّمس

لا نرى

ولا نشعر

الواقع في النُّور

يصبح ظلَّ رخامٍ.

في سيارة فورد قديمة ومتداعية، مَررنا بنقطة التَّفتيش بلا صعوبة، وبعد حوالي عشر دقائق بدأت التِّلال تلوح على طول الأفق، شاهدنا فيلاتٍ بيضًا ومنازل أسطحها قرميدٌ أحمر. هذه هي المباني الأولى في (غوش عتصيون). يبلغ عدد السكان حوالي ١٥ ألف نسمة، وهي وحدة إداريَّة بها رئيس بلدية ومجلس. يمرُّ الجدار من هناك. لكن أليست هذه الأرض فلسطينيَّة؟ يجيب: «نعم، لكنَّها كانت دائمًا غير مأهولة فعليًّا». الحاجز خفيض، والحارس في كشكه، هذا هو الحاجز الوحيد على طول السياج الذي يفصل (ألون شفوت) عن العالم الخارجي. في الجزء الدَّاخلي، هناك مجموعة من المباني المرتَّبة، ولكنَّها ليست فخمة جدًّا، وكلُّها على الطراز الأميركي مع مرأب وسيارة متوقِّفة في الخارج. يعمُّ المكانَ شعورٌ بالهدوء والألفة والانفصال عن ضجيجِ المدينة. بعد كيلومتر واحد، أو كيلومتر ونصف، على قمة تل، وصلنا إلى قلب المستوطنة؛ المدرسة الدينيَّة. هذا أصلها؛ الجزء القديم، ثم توسَّعت رقعتها وزاد عدد السُّكان بشكل كبير. يبلغ عددهم الآن أربعة أو خمسة آلاف. إنَّهم يعيشون في ناحية تقطنها عائلات المهاجرين الأنكلو-ساكسون: أميركيُّون وأستراليُّون وكنديُّون، إضافة إلى «الإسرائيليين» الذين انتقلوا إلى هنا من المدن والقرى. زاد عدد السُّكان إلى الضِّعف تقريبًا، ويزداد باستمرار منذ تسعينيات القرن الماضي. هناك طلب كبير على القدوم إلى (ألون شفوت). نحن نعلم أن الحكومات من جميع الأطياف السياسية قد شجَّعت على ملء المستوطنات اليهوديَّة. لكن أرييل ينفي أن هناك، على سبيل المثال، امتيازًا أفضل للمنازل فيها. قال لي: «ليس صحيحًا أنَّ المنازل أرخص من أي مكان آخرَ في «إسرائيل». إنَّها بسعر السوق. من الواضح أنَّنا نواصل البناء هنا، داخل حدود المستوطنة التي لا يمكن تعديلها أو توسيعها: المنازل مطلوبة لأنَّنا نعيش بشكل جيِّد، في مكان هادئ، وهي مناسبةٌ جدًّا للأطفال. أنا نفسي لم آتِ إلى هنا

لأسبابٍ دينيّةٍ، بل لأنه بدا لي مكانًا يضمُّ مجتمعًا مُتَّحدًا، وملائمًا جدًّا للعائلة وتنشئة الأطفال».

العائلات كبيرة العدد في الواقع؛ لكلِّ أسرة أربعة أو خمسة أطفال في المتوسط. يذهب الأطفال إلى المدرسة الابتدائية التي تبعد مئات الأمتار عن مدخل المستوطنة، ويعبرون جسرًا مرتفعًا للمشاة؛ قديمٌ قِدَمَ البلوط الذي يعود تاريخه إلى قرن من الزَّمان. بالقرب من مزارع الكروم المزروعة التي تملكها العائلات الفلسطينيّة، توجد أيضًا مدارس ثانويّة، مدرستانِ ثانويّتان للإناث، ومكاتب إداريّة ومركز ثقافي ورياضي يخدم سكّان المستوطنة. لشَجرة البلوط معنىً

مُحدَّدٌ؛ إنّها ترمز وتحتفي بذكرى مكان للتَّعبُّد لأولئك المخلِصينَ لوطنهم وأطفالهم... حكاية أرض متنازع عليها. توجد بالقرب من شجرة البلوط أربعة أحجار ترمزُ إلى الكيبوتس(28) الأربعة المجيدة التي كانت موجودة قبل سنة ١٩٤٨. تأسَّست المستوطنة سنة ١٩٧٠ بمبادرة الأطفال أو النّاجين من الكيبوتس الذين ماتوا دفاعًا عن منازلهم. والكيبوتس هي المستوطنات الأولى التي أُنشئت في «إسرائيل» بعد حرب سنة ١٩٦٧.

(دير ياسين) هو الاسم الأصلي لقرية فلسطينيّة، رمزٌ للشَّعب الفلسطيني ارتبطَ بهذه المستوطنة. قبل شهر واحد تمامًا من ذبح سكّانها، فجرًا، هاجمت القرية مجموعة شبه عسكريّة مُتطرفة من اليهود الصَّهاينة، بمن فيهم أعضاء ما يُعرف بـ(عصابة شتيرن)(29)، تطبيقًا لاستراتيجية تُخطِّط لإعادة فتح الطريق إلى القدس الذي كان محظورًا. لا أثرَ لعصابة (شتيرن) في كتبنا التَّاريخيّة. إنّها منظمة شِبه عسكريّة مُتطرِّفة تناهض كافَّة أشكال التَّعاون مع البريطانيين. أسَّسها -قبل سنواتٍ من هذا الحدث- صِهيوني بولندي مُتطرف هاجر إلى فلسطين، وانفصلَ عن منظمة (أرغون)، يُدعى أبراهام شتيرن، ومعروف باسم «يائير».

طاردَ البريطانيُّون عصابة (شتيرن)، فعملت بسريّة، واتَّخذت نهجًا إرهابيًّا – بمفهومنا المعاصر- في الصراع السِّياسي والعسكري، رغبةً في ولادة دولة «إسرائيل» الجديدة. كان تفجير فندق الملك داود في القدس سنة ١٩٤٨ -الذي أسفر عن مقتل ٩١

شخصًا- أشرسَ هجماتهم، ثمَّ اغتالوا وسيطَ الأمم المتحدة في فلسطين، السويدي كونت فولك برنادوت(30)، وقبله اغتالوا ممثل بريطانيا في الشرق الأوسط، لورد موين(31).

قيل إنَّ عدد مرتكبي مذبحة دير ياسين مئة شخص من الميليشيَّات. وبحسب بعض المُؤرِّخين، رُكِّب مُضخِّم صوت على مُدرَّعة، لتحذير القرويين وإبلاغهم بضرورة إخلاء منازلهم قبل العمليَّة. قال أحد أفراد الميليشيات أنّ أحدهم قد صرخ باللغة العربيَّة وطلب أنْ يلقي السُّكان أسلحتهم ويهربوا. يقول أرييل: «لا نعلم إذا سمعونا، لكنَّنا نعلم أنَّ تلك التَّحذيرات لم تُسفر عن نتيجةٍ».

تظاهرَ العربُ الباقون بالاستسلام، ثمَّ واجهوا العدو بإطلاق نيران كثيف. لم تتوقَّع الوحدات اليهوديّة هذه المقاومة. هربوا من منزل إلى منزل، تاركين بعض موتاهم على الأرض. كانت العمليَّة مكلفةً جدًا من ناحية الأرواح البشريَّة، ثم بدأ خبراء المتفجِّرات عملهم. فجَّروا البيوتَ واحدًا تلو الآخر بالدِّيناميت. أطلقت الميليشيَّات الصِّهيونية النَّار على كلِّ شيء يتحرك حتَّى فترةٍ ما بعد الظهيرة. مذبحةٌ استهدفتِ المدنيينَ. وُضِع ٢٥ ناجيًا في شاحنات وطيفَ بهم في شوارع القدس كما فعلت الجيوش الرُّومانيَّة قديمًا، ثمَّ أعدموهم بإطلاق الرَّصاص على رؤوسهم. يختلف العدد التَّقديري للضَّحايا، فحسب مصادر هو بين ١٠٠ إلى ١٢٠، حتى وصل إلى الرقم المرفوض البالغ حوالي ٢٥٠. اكتُشِفَ وجود جثث مشوهة، بينما أُلقيت جثث أخرى في مقابر جماعيَّة وآبار. والأدهى من ذلك كانَ استغلال المجزرة لترويع السُّكَّان الفلسطينيين في القرى ودفعهم إلى مغادرة ديارهم، وهو ما تحقَّق. منذ تلك اللحظة، اعتمدت المقاومة العربيَّة صيحة «دير ياسين!». تمامًا كما حدث بعد شهرٍ واحد(32) في (غوش عتصيون) التي تضمُّ مستوطنة (ألون شفوت). اصبحتِ المستوطنة هدفًا رئيسًا، وقد شهدت عدَّة حوادث؛ معظمها من مقاومين عرب كانوا قد شنُّوا سلسلةَ هجماتٍ واسعة النِّطاق على تجمُّعات المستوطنة. واجهتهم القيادات الصِّهيونية بحزمٍ بادئ الأمر، ثمَّ ما لبثت أنْ تخلَّت عن المستوطنة تمامًا بعدما أدركت أن لا أمل لها في الاحتفاظ بها. فتخلَّى رجال الكيبوتس عن عتادهم واستسلموا. رفعوا الرَّاية

البيضاء، واصطفوا للاستسلام أمام مبنى مدرسةٍ. كان عددهم ١٣٣ شخصًا. التّقارير التي تروي ما حدث بعد ذلك مُلتبسة، لكنّ ما نعرفه يقينًا هو أنّ رجالَ المقاومة الفلسطينيّة قد أطلقوا الرّصاص من مدفع رشاش وهم يهتفون «دير ياسين! دير ياسين!». لجأ عدد من رجال العصابة إلى الدّير الألماني المجاور، وقد وقع فيه دفاع بائس قُبيل إمطارهم بقنابل يدويّة، ليتهاوى المكان على رؤوسهم.

طمأنني أرييل بقوله: «ولكن هذه ليست مستعمرة «متوتّرة»، حتّى وإنْ كانت لا تبعد كثيرًا عن مستعمرات أخرى تعيش أوضاعًا صعبة. تربطنا علاقات جيّدة مع الفلسطينيين الذين يعيشون ويزرعون على مسافة قريبة من مدارس المُستوطنة ومراكز التّرفيه فيها. ولم تقع قطُّ أي حوادث، ولا حتّى خلال الانتفاضة، باستثناء مرة واحدة قبل سنوات، حين قُتل مستوطنٌ. يأتي الكثير من فلسطينيي المنطقة للعمل هنا. تتوفّر في المستوطنة جميع الخدمات: مكتب بريد، وروضة أطفال، ومكتبة، ومعبدانِ يهوديّان، ومصرف، وعيادة تعمل على مدار السّاعة، وفيها أطباء يوفّرون الرّعاية مع توفُّر سيارة إسعاف دائمًا».

نشاهد أمام منزل سيارة إسعاف متوقفة؛ يعيش السّائق في ذلك المنزل، وفي حالات الطوارئ يتوجّه إلى أقرب مستشفى يعمل على مدار اليوم، وهناك سوقٌ أيضًا. «أغلب الفلسطينيين الذين يعملون في (ألون شفوت) يعملون في السوق، وهناك مدرسة دينيّة أيضًا. يأتون إلى العمل في الصّباح ويغادرون مساءً». على أي حال، المستوطنون في حالة تأهُّبٍ دائم. المستوطنة مُسيّجةٌ بالكامل، وثمّة نقطة تفتيشٍ تستقبل التّنبيهات أو الإنذارات من السّكان، وهناك دوريات مُسلحة يقودها السّكان بأنفسهم لحراسة المستوطنة ليلًا ونهارًا، كما توجد حراسة خاصّة.

بعد مُضي أيّام قليلة من زيارة (غوش عتصيون)، فاجأني مراسل صحيفة إيطاليّة لها شأنٌ، من القدس، حين أخبرني قصّة (ألون شفوت): «يهتمُّ المستوطنون كثيرًا بإعطاء صورة مغايرة لتلك التي تنشرها وسائل الإعلام يوميًا. بعضهم هادئ بلا شك، لكنّهم يتعاملون بقسوة مع الزُّوار، وبعنادٍ شديدٍ مع الصّحفيين الذي يُظهرون ميلًا سياسيًا أو دينيًا على وجه الخصوص. إذا رأيتهم وتكلّمت معهم فلن تعتقدَ بتاتًا

أنّهم متعصّبون، لكنّهم كذلك. أكثرُ الجُمَل انتشارًا هي: «أنا هنا لأنّ هذا المكان مثاليٌ لتنشئة الأطفال. وفيما بعد -على سبيل المثال- يتبيّن أنّ المستوطنةَ تقع تمامًا في مكانٍ ينتمي إليه المتدينون أو الصّهاينة؛ العِرق اليهودي دون جدالٍ».

وفقًا للعديد من أحكام المحاكم الدوليّة، فإنّ المستوطنات اليهوديّة غير قانونيّة. وقد قضت محكمة العدل الدّوليّة في لاهاي بانتهاك «إسرائيل» للمادة ٤٩ من اتّفاقية جنيف التي تنص على التّالي: «يُحظر النّقل الجبري الجماعي أو الفردي للأشخاص المحميين أو نفيهم من الأراضي المحتلة إلى أراضي دولة الاحتلال أو إلى أراضي أي دولة أخرى، محتلة أو غير محتلة، أيًا كانت دواعيه». لكن «إسرائيل» تتحجّج بأنّ الاتّفاقيات الدّوليّة المتعلقة باحتلال الدُّول لا ينطبق على فلسطين، لأنّها لم تكن تحت سيادة أي دولة قبل سنة ١٩٦٧. تدّعي «تل أبيب» أنّ تعريف الأراضي بأنها «محتلة» هو تعريف خاطئ؛ إذ يجب استبدالها بـ«متنازع عليها» للسّبب نفسه. ثم ينص قرار الأمم المُتّحدة ٢٤٢ المُؤرّخ في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ على انسحاب القوات «الإسرائيلية» من الأراضي المحتلة في إشارة لإثارة [وزير الدّفاع آنذاك] موشيه دايان للحروب. لكنّه عارضه مرارًا وتكرارًا لأنّ «القرار يتحدّث عن انسحاب إلى أجلٍ غير مسمى من جزء من الأرض» وفقط بالقدر الذي تتطلبه «الحدود الآمنة والمعترف بها». كانت «إسرائيل» قد انسحبت بالفعل من معظم الأراضي التي احتلتها. والواقع أن الموقع المحدد للمستوطنات «الإسرائيلية» قد حُدّد على مدى العقود الثلاثة الماضية من قبل كيان مثل وزارة الدّفاع، لا المستوطنين.

لقد أُنشئت المستوطنات من أجل تعزيز الوجود «الإسرائيلي» في تلك المناطق القليلة التي لا تستطيع «تل أبيب» الانسحاب منها عسكريًا. من الواضح إذن أنّ المسألة محسومةٌ قبل إطلاق القنابل وقذائف الهاون والمراوغات القانونية.

(ألون شفوت)، مثل جميع المستوطنات، فيها رئيس بلديّة ومجلس (ينتخب المستوطنون كليهما) يتعاملان مع جميع القضايا الإداريّة: من نفقات الرّعاية الاجتماعيّة إلى التّعليم والصّحة والخدمات الثّقافيّة والنّقل. ليسا ثريين بلا شك. منزل أرييل متواضعٌ للغاية، وهو يعيش وحيدًا منذ انفصاله عن زوجته، المنزل

فوضوي جدًا؛ الكتب مُتناثرة في كلّ مكان، وهناك حاسوب، ومطبخ صغير فيه أطباق مُتراكمة تنتظرُ غسلها. لا يوجد تلفاز؛ «لست بحاجة إليه، أنا أستخدم الإنترنت». يعاني أحد أطفاله من إعاقة ذهنيّة. أخبرني عن مجموعة آباء جِيءَ بهم إلى «إسرائيل» ويتّبعون منهج (بيتو Peto) الهنغاري لتعليم الأطفال ذوي المشكلات الذهنيّة، افتتحوا روضة أطفال في القدس، فيها أطفالٌ يهود وعرب. أحد موظّفيها عربيٌّ. «يعملون جميعًا يدًا بيدٍ للتّغلّب على إعاقات لازمت الأطفال منذ ميلادهم. مواجهةٌ يوميّة تُلغي أيّ اختلاف آخر». «لكنّ المشكلة تكمن – تتكرّر آليًا مرّة أو مرّتين، وهي أنّ الفلسطينيين يرفضون الاعتراف بدولة «إسرائيل»». ويُضيف: «في محادثات كامب ديفيد، لم ترغب «إسرائيل» في التّخلي عن هذه المستوطنات، وهو ما لم يقبلْه عرفات أيضًا»؛ تعقيدًا لاتّفاقيّة السّلام التي سعى إليها الرّئيس الأميركي بيل كلينتون في سنة ٢٠٠٠، والتي لا تزال معلقة من قبل «إسرائيل» لاتّهام الطّرف الآخر بعدم الرّغبة في إيقاف الأعمال العدائيّة. رفضَ الزّعيم الفلسطيني ما بدا حتّى ذلك الحين أكثر العروض فائدةً على الإطلاق؛ لكن جوهر جوهر كان استحالة التّوصل إلى اتّفاق بشأن القدس وحق اللّاجئين الفلسطينيين في العودة. يزعم رئيس الوزراء «الإسرائيلي» يومذاك، إيهود باراك، أنّه قد عرض على عرفات ١٠٠٪ من قطاع غزّة و ٧٣٪ من الضّفة الغربيّة. حسب هذا العرض، في غضون ١٠-٢٥ سنةً، ستتحوّل نسبة الـ٧٣٪ من الضّفة الغربيّة، ضمن الدّولة الفلسطينيّة، إلى حوالي ٩٠-٩١٪.

لا تزال هناك مشكلة أخرى لم تحل؛ ألا وهي مشكلة المياه. ما زالت «إسرائيل» تُسيطر على كل مياهِ الضّفة الغربيّة. لا يفسر أرييل سبب التّعنت «الإسرائيلي» في حيازة الأرض التي يعيش عليها أيضًا. لا أريد أن أسأله؛ فالسّبب الوحيد الذي يتبادر إلى الذّهن هو الأهميّة التّاريخيّة والوطنيّة لبعض المُستوطنات، وخاصة مُستوطنات كتلة (غوش عتصيون). أتساءل عن طريقة عيش المستوطنين الآخرين. أوضحَ لي: «كثير من العاملين في القدس، هم معلمون ومهنيون، والبعض الآخر يعملون في خدمات المنطقة، والتجارة، والمدارس المحيطة. هناك أيضًا من يذهبون للعمل في الكيبوتس القريب يوميًا».

يعود المستوطنون إلى ديارهم مساءً بعد العمل. تقع المدرسة الدّينيّة في موقعٍ

نموذجيّ في قلب المستوطنة؛ إنّها مرتفعة، تتوسط المكان، إضافة إلى أنّ كلّ شيء ينحدر منها. تحظى بتقدير كبير، ويتردّد عليها اليهود من كلّ مكان في العالم. توجّهنا إلى منزل ديفيد، وهو مستوطن أميركي يبلغ من العمر ٣٩ سنةً، متزوج، وله أربعة أطفال تتراوح أعمارهم بين ٥ و١١ سنةً - ليروي قصّته. ديفيد أصلع وسمين إلى حدّ ما، ويبدو لطيفًا. لا يمكنني تخيُّله يرشق الأطفال الفلسطينيين بالحجارة. إنّه من نيو جيرسي، وقد جاء إلى هنا في طفولته للالتحاق بالمدرسة الدّينيّة. ثُم، عاد إلى أميركا بعد إنهاء دراسته. قال لي: «إقامتي في الولايات المتحدة ليست سيّئة؛ لأنّ اليهود هناك يحظونَ بالاحترام والمعاملة الحسنة، لكنّي لم أشعر بالرّاحة التّامة. انتابني الضّيق كلّما حان موعد الصّلاة ولم أعرف إلى أين أتوجّه، كما أحرجني ارتداء الكيباه [ملاحظة: طاقية الرأس التقليديّة التي يرتديها اليهود الملتزمون. المُحرّر الإيطالي] أمّا في «إسرائيل» فيوجد كنيس في جميع مراكز التّسوق. وهذا سببُ مجيئي إلى «إسرائيل»، تزوّجت هنا، ثمّ عزمت على العيش في (ألون شفوت). أقيم فيها منذ ١٣ سنةً؛ مُذ كنتُ في السّادسة والعشرين».

يعمل ديفد من المنزل، مثل زوجته؛ إنّه يُترجم النُّصوص من العبرية إلى الإنجليزية ويُحرّرها. أدركتُ وجود نقطة لا يمكنني تجاوزها، لكيلا يرتابَ المستوطنون منّي باعتباري صحفيًا يجب عرقلة مهمّته، لكنّه ما لبث أنْ اعترف قائلًا: «شعرتُ بأنّي قد عدت إلى منزلي بعد عودتي إلى هنا. هذا مجتمعٌ كبير وفوق كلّ شيءٍ متجانس، والجميع يفكّرون على ذات النّحو. جميعنا أرثوذكس وطنيّون هنا، انتماؤنا راسخٌ إلى ذات العقيدة ومستوانا الثّقافي مرتفع. لكنّ العيش في مستوطنة يعني أكثر من ذلك بكثير؛ إنّه التّماهي مع فكرة التمركز اليهودي في منطقة مهمّة لنا من النّاحية الدّينيّة». لكن عندما سألته عمّا إذا كان مستعدًا للعيش في مكانٍ آخر، أجابني:

- «ربّما خارج المستوطنة، لكن ليس خارج «إسرائيل»».

- «وما هي تطلّعاتكم بالنّسبة لمستقبل «إسرائيل»؟».

- «لا شيء، لكنّي واثقٌ من أنّ اليهود في العالم سيفهمون مع مرور الوقت أنّ

مُستقبلهم في هذا البلد».

لتكوّن فكرةً عن الكثافة السُكانية الهائلة في المستوطنات اليَهوديّة في الضِّفة الغربيّة، عليك ركوب الحافلة ١٤٨ باتجاه «أرييل»؛ إحدى أكبر المستوطنات اليهوديّة وأكثرها شهرةً، على بعد ٥٠ كم فقط من القدس. يستغرق الوصول إليها ثلاث ساعات تقريبًا. عليك أن تستقلَّ حافلةً تربط عدة مستوطنات على طول الطريق. تبدو كحافلة من المستوطنات؛ ففي المحيط المجاور ثمَّة ست أو سبع مستوطنات على الأقل، وكلُّها ضخمة. الحافلة مليئة بالشابات؛ يرتحلنَ مع عدد كبير من الأطفال، ولا يكشفنَ عن أرجلهنَّ بتاتًا، أوشحتهن وتنانيرهن طويلة على الطِّراز اليديشي، سودٌ أو رماديّة أو بألوانٍ باهتة. يقع موقف الحافلات في المحطة المركزيّة الكبيرة بالقدس، ويخضع لضوابط صارمة لأنَّه أحد أكثر الأهداف تضرُّرًا من الهجمات. يجب على المسافر المستعجل أن يأخذ في الاعتبار هدر الوقت الذي سيصادفه، خاصَّة إذا كان يريد ركوب طائرةٍ لأنَّه يجب أن يصلَ بالحافلة إلى «تل أبيب»؛ المطار الوحيد في المنطقة للفلسطينيين و«الإسرائيليين». لا خلاف على الكفاءة «الإسرائيلية»، لعلَّها على حساب الأخلاق، لكنَّك ستتمكَّن دائمًا من المرور. لا تبعد أوَّل محطة للحافلة أكثر من ١٠ كم عن المدينة. اسمها (غيفا بنيامين)؛ أي «تل بنيامين»، ويقطنها بين ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ مستوطنٍ؛ بعدها مستوطنة «كوخاف يعقوب» التي تأسَّست سنة ١٩٨٥، ويقطنها ٤٥٠٠ نسمة.

تقع على مرتفع مثل جميع المستوطنات تقريبًا، تطل على مشهد بانورامي مذهل رياحه عنيفة. معزولة، وفيها فيلات بِيضٌ تضم أسرة أو أسرتين على الأغلب، وما زال معظمها في طور التَّشييد. نتابع طريقنا، ونعبر مستوطنة «شفوت راشيل». المستوطنات متشابهة؛ فيها لمسة من أوروبا الوسطى، أو على طراز منازل إنكلو-ساكسون الشَّرق الأوسط على الأغلب، تشبه لونغ آيلاند أو الضَّواحي السَّكنية التي لا تشوبها شائبةٌ في مانشستر. تذكَّرتُ، فور مشاهدة المستوطنات، قرى جنوب إفريقيا المطلَّة على السَّاحل قرب كيب تاون، مثل: مدينة سيمون، كليبفونتين، ووندلاندس؛ قرى هولندية وإنكليزية البناء بامتياز، ولكنَّها في أرض الزولو. منازلها مُرتَّبة، وأسوارها خشبيَّة، وفيها حدائق ومرائب لا علاقة لها بتاتًا بما يحيط بها؛ تذكِّرني

(تحديدًا) بأحياء العديد من العواصم الأسيويّة والإفريقيّة المُستعمرة، واحة دخيلة على غِرار الدولة الأم حيث من الواضح أنّ على مُستوطنين من عالم آخر الشُعور بأنّهم في وطنهم. يوجد في (شفوت راشيل) أيضًا مصنع نبيذ، حيث يمكنك تذوُق وبيع النّبيذ المُصنّع محليًا. أصبح النّبيذ «الإسرائيلي» ثمينًا على موائدنا. تتوفّر جميع الخدمات: العيادة الطبية، المكتبة، روضة الأطفال. تسمع الكثير من الفرنسيّة هنا.

أمامنا، على بعد حوالي ١٠ كم، تقع (معاليه ليفونا)، التي تبدو أكبر من المستوطنات الأخرى، وموقعها يسلب الألباب قطعًا. من الطّريق الرّئيس، عند المفترق ٦٠، صعدنا بضع كيلومترات أخرى على طول طريق ملتوٍ آخر، «تل البخور» هو معنى اسم المستوطنة العبري، حتى وصلنا إلى ما يشبه التّل. أصبح المنظر خلّابًا، تكتسحه على مدّ البصر أسوار أحرقتها الشّمس، وصفوف أشجار الزّيتون، والحقول أسفله تبدو محروثةً، ولكن لا أحد يعمل فيها. تجاوزنا البوابة الصّفراء مع الحارس، ووصلنا إلى المستوطنة بعد بضع ساعات. شاهدنا هنا: مصنعَ نبيذٍ مثيرٍ للاهتمام، «مصنعَ ليفونا للنّبيذ»، وحديقة حيوان، ومرصدًا، نُزلًا، والملعبَ، والكنيسَ؛ الدّفلى وحدائق الزُهور في كلّ مكان، إضافة إلى الصُفوف المعتادة من منازل تقطنها أسرة واحدة، شُيّدت على الطّراز الإسكندنافي، وجميع أسقفها منحدرة. خلال وقتٍ قصير من عودتنا إلى الطريق الرّئيس، بدت «أرييل»، وهي مُستوطنة يزيد عدد سكانها على ١٨٠٠٠ نسمة وتشبه بلدة صغيرة. تشغلُ تَلًا بأكلمه، وتبدو أسطح منازلها كبحر فيه نقاط حمرْ.

الفصل السّادس

لاجئٌ منذ سنة 1948

«من الضروري أن نأخذ في الاعتبار عددًا معينًا من الاختلافات الجوهرية بين المنفيين، واللاجئين، والمغتربين، والمهاجرين (...). إنَّ اللّاجئين نتاج سياسات الدّولة في القرن العشرين. أخذت كلمة «لاجئ» معنىً سياسيًا على الفور، في إشارةٍ إلى أعداد كبيرة من الأفراد الأبرياء والمقتلعين من جذورهم. الأمر الذي يستدعي المساعدة الدولية العاجلة، في حين أن المنفيّين -في اعتقادي- يكتسون دائمًا بطابع غريبٍ من العُزلة، وحالةٍ من عدم الاستقرار. إنّهم روحانيونَ».

إدوارد سعيد

(عن المنفى)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ٣٢﴾ [المائدة: ٣٢].

سأزورُ أحد مُخيَّمات اللّاجئين في بيت لحم، مع الأب بييرجورجيو. طلبتُ منه مرافقتي لأنَّ للزيارة هدفًا خاصًا: التّحدث مع لاجئٍ مسنٍّ؛ شخصٍ يعيش في هذا المكان منذ تأسيسه سنة ١٩٤٨، أي أكثر من ستين سنةً. يعيش الأب بييرجورجيو في الشّرق الأوسط منذ خمسين سنةً. زار كل مكان: لبنان والعراق ومصر، لكنّه قضى معظم حياته في بيت لحم التي يعرفها هذا الجزء من فلسطين عن ظهر غيب. إنّه باحث، يدرّسُ موادَّ الفلسفة والدّين بالمدرسة السّاليزيانية في بيت لحم – يتكلّمُ العربيّة وكتبَ بإسهابٍ عن اللّاهوت الشّرقي وعن الاختلافات بين الطقوس في الكنائس المسيحيّة الشّرقيّة واللّاتينيّة. اهتمامُه مؤكّد بكلّ ما هو مرتبط باللّاهوت وباللّغة والثّقافة، وبما هو مُتعلّق بالعالم العربي والإسلامي. سنفهم منه عن الشّرق الأوسط أكثر مما نفعله مع محاضرة أستاذ جامعي أو مادة مراسل صحفي. فمثلًا، حين شاهدتُ شابة مسلمة دون حجاب، تذكّرت أنَّ هذا كان أمرًا طبيعيًا في يوم من الأيام؛ «كانت فلسطينُ معتدلة دينيًا قبل دخولها في دوامة الصّراع».

أثناء اقترابنا من «مخيّم عايدة» بالسّيارة، أشارَ إلى الجدار من بعيدٍ، وقال: «قطعَ التّمدد العمراني وعرقل السُّكان». مُخيّم عايدة ليس بعيدًا عن الدّير والمدرسة السّاليزيانية. إنّه أحد ثلاثة مُخيّمات للّاجئين في بيت لحم، وهو محاطٌ بالكامل تقريبًا بالجدار الفاصل. يوجد في فلسطين والدول العربية المجاورة حوالي ستين مخيمًا للاجئين، وهو الأقدم في العالم. حوصرَ السُّكان، الذين فرُّوا من ديارهم بعد حرب ١٩٤٨، هنا حيث يعيش ثلثا الفلسطينيين، في مستويات قياسيّة من البطالة وشح المياه والكهرباء وتفتيشات الجيش «الإسرائيلي» المتكررة لمن يشتبهون في إيوائه لمقاتلين مُسلحين. تتحدّث الإحصاءات الأخيرة عن وجود خمسة ملايين لاجئ تقريبًا، بينما كان عددهم ٧٠٠ ألف تقريبًا في سنة في ١٩٥٠. مدخل «مخيّم عايدة» عبارة عن بابٍ كبيرٍ فيه شكل رمزي لقفل مفتاح. يطالب لاجئو ١٩٤٨ بحقهم في العودة، وهم يحتفظون بمفاتيح المنازل التي أجبروا على التّخلي عنها، ولم يعودوا إليها قطّ. لم تعد المنازل موجودةً على الأغلب. وإذا كانت موجودة، فلا أحد يعرف من يقطنها بعد مرور أكثر من ستّة عقود.

شعرتُ بالفضول لمعرفة مصدر الاسم «عايدة» الذي يستحضر في الذّهن أوبرا

خالدة [للموسيقار الإيطالي جوسيبي فيردي]. لم أعرف الإجابة، لكني اكتشفتُ وجود بضعة من إيطاليا هنا. يشبه المخيم الآخر إلى حدٍّ كبير؛ جميع المُخيّمات مُتماثلة. يقول الأب بييرجورجيو إنّها «مميّزة عن باقي المدينة بسبب مبانيها الملاصقة لبعضها».

نحن الآنَ في الأسبوع الأخير من رمضان. النّاس منشغلون بالصّلاة أو التّحضير للإفطار الرّائع، ويتباطؤون في كلّ نشاطٍ نهارًا. لكن عبدالمجيد محمد أبو سرور يتكلّم بحُرية رغم صيامه وسنواته الـ ٧٩، ويتذكّر كلّ شيء بمشاعر فيّاضة. لديه ذات الإسهاب في الحديث، والأسلوب في سرد القصص اللّذان يُميّزان العرب. استرسل في حديثه ووثق في الغريب الذي قابله توًا. جلس على عتبة باب منزله مع من في عمره، إلى جانبه امرأةٌ، وعلى رأسه كوفيّته الفلسطينيّة، مثبّتة على رأسه بعقال؛ وعلى إطار الباب ثمّة عصا. ولِد عبدالمجيد سنة ١٩٣٣ في بيت نتيّف، وهي قرية تبعد عنّا بضعة كيلومترات «بالقرب من الطّريق السّريع اليومَ». يتكلّم يعينين مُفعمتين بالحيويّة، ويضحك بأسنانهِ المائلة والمكسورة، ويلمس باستمرارٍ يد وساق الأب بييرجورجيو بطريقة حماسيّة كما لو كان صديقًا قديمًا. تذكّر الرّاهب عددًا من الأشخاص الذين ذكرهم الكهل؛ لأنّ الرُّهبانَ السّاليزيان موجودون هنا على الدّوام، وقد قصدهم العربُ المحليون في مختلف الحاجات، حتّى لغرض العمل. يشرح لي الأب بييرجورجيو أنّه يوجد في تلك المنطقة تجمُّع ديني اسمُه [دير] «بيت جمال»، وهو جزء من التاريخ السّاليزياني الطّويل في فلسطين. حيث كانت توجد مطحنةٌ للحبوب في أرض أشتريت سنة ١٨٩١. أولئك الذين لجؤوا للساليزيان، في المطحنة وكذلك المشفى، كانوا في الغالب مزارعين مسلمين من المناطق المحيطة، وقد أُستقبلوا واعتُني بهم بلُطف، لدرجة أنّهم عبّروا عن امتنانهم العميق. قال: «آهٍ، الإيطاليون! لم يكن هناك أحدٌ غيرهم هنا في أوقات مُعيّنة. والفترات العسيرة كثيرة منذ ١٩٤٨». استطردَ قائلًا: «عشنا نحن العرب مع اليهود كأخوةٍ في زمن الانتداب الإنكليزي، ولم يكن في القرية سوى طبيبين؛ أحدهما إيطالي والآخر يهودي».

يسأل الرّاهب السّاليزياني: «هل كان اسمه سيمون ستروجي؟»(33) ضربه عبدالمجيد محمد أبو سرور على يديه، وقال مؤكّدًا: «هو بذاته!»، تبيّن لاحقًا أنّه

مجرّد ممرض. تابع الرّاهب حديثه: «كان البريطانيون آنذاك شديدي القمع، وتلك المعاهد كانت الوحيدة التي قدمت لنا الدّعم والعمل. لكننا لم نعتقد أبدًا أن ما حدث مع اليهود سيحدث. بدأ كلُّ شيء بهجماتٍ يهودية على البريطانيين الذين أعطوا الأسلحة للعرب لمحاربتهم. كنتُ صبيًا آنذاك، وكان عدد اليهود قليلٌ ولكنّ عتادهم أفضل، بينما امتلك بعض الفلسطينيّين الرُّفوش والمجارف ومشوط الأرض فقط. مات كثيرٌ منهم لهذا السّبب».

حرّكنا كراسينا بين الحين والآخر تجنُّبًا لأشعّة الشّمس التي أشرقت منتصفَ اليوم وجعلتنا نتعرق. نحن الآن في أحد أزقة المُخيّم؛ أمام باب منزل الرجل الكهل متجرٌ صغيرٌ بابه مُوارب، لربما هو متجره. لم أتبيّن ما يبيعه، ولم يقتربْ منه أحد. يعيشُ عبدالمجيد محمد أبو سرور في مخيّم اللاجئين منذ إنشائه. واحدٌ من القلائل القادرين على سَرد ما حدث خلال تلك الأيام الحاسمة وجميع الأحداث اللّاحقة التي ألمّت بشعبه. أيّام من الفوضى الشديدة، من غارات العصابات المسلحة. حُفرت في أذهان من عاشوها. «كما دخل المصريّون الحرب التي أشعلها البريطانيون أيضًا؛ أمّا الأردنيّون فقادهم غلوب باشا. كانت هناك اشتباكات، لذلك هربنا ليلًا إلى التّلال القريبة. مكثنا ثلاثة أسابيع في جبال وادي فوكن، ثم وصل إلينا لواء يهودي وطاردنا من هناك. فذهبت الى قرية الخضر المُجاورة».

إنّ الصّراع العربيّ - «الإسرائيلي» قصّةُ بقع جغرافيّة، وإنْ كانت مساحتها بضعة أمتار، تقاتل من أجلها حتّى الموت. وهكذا، فإنّ لكلّ قرية، ولكلّ منزلٍ تقريبًا، قصّة خاصّة ثروى، مشابهة في كثير من الأحيان لغيرها. كنت أجهل «بيت نتيّف»(34) لا شكّ. هناك معلومات بسيطة عنها على الإنترنت.

أيّامٌ عصيبةٌ من مداهمات العصابات المسلحة لن ينساها من عايشَها أبد الدّهر. يقول الرّجل العجوز إنّ الجيش المصري قد احتلّ المنطقة سنة ١٩٤٨، وأقام موقعًا محصّنًا على التّل الذي عُرف فيما بعد باسم «بيت شيمش». انتقل الموقع من يد إلى يد عدّة مرّات أثناء القتال. احتلت [الكتيبة الرّابعة] للواء هرئيل اليهودي جزءًا من الموقع لعدة أشهر، وأسمته «موقعًا مشتركًا» أو (مشلات همشوطاف)، على

بعد ٦٠ مترًا فقط من قوات العدو. استولى عليها في نهاية المطاف لواء هرئيل في هجوم هار هار (Ha-Har) ليلة ١٩-٢٤ أكتوبر ١٩٤٨». هذه قصّة من قصص التّهجير الفلسطينيّة المطمورة في التّاريخ والذّاكرة. يعرف الجميعُ ما يكمنُ وراء الأحداث السّياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة الكُبرى. تشعّبت قصّة عبدالمجيد محمد أبو سرور أحيانًا، لكن سرده واضحٌ دائمًا دون التباس على الإطلاق. ويتابع: «فيما بعدُ، وصل اليهود إلى (بيت نتيّف)، ودمّروا جميع البيوت، بل وبنوا فوقها. كانت الرّسالة واضحةً: لا عودة إلى ذلك المكان».

للرّجل المسنّ أحدَ عشر طفلًا؛ ستّة فِتيةٍ وخمسُ فتيات. بجانبه امرأة ترتدي فستانًا أخضرَ طويلًا، وحجابًا خفيفًا يغطّي شَعرها. يصعب تحديد عمرها؛ فضّلت عدم سؤاله عمّا إذا كانت زوجته. في العالم العربي خاصّةً، والإسلامي عمومًا، تبقى الأمور الشّخصيّة سِريّة وطيّ الكتمان. «البناتُ تزوجنَ وغادرنَ المنزل، أمّا الذّكور فبقوا جميعًا هنا في «مخيّم عايدة» مع أطفالهم، باستثناء طبيبٍ». وهذا يعني أنّ هناك مخيّماتٍ تعيش فيها ثلاثة أجيال أو حتّى أربعة أجيالٍ من اللاجئين، بدءًا بالنّاجين الأوائل؛ يمكن للأجيال أن تصبح خمسةً إذا ما وضعنا في اعتبارنا معدّل الخصوبة المرتفع ومتوسط العمر المنخفض للغاية بين الشباب الفلسطينيين المتزوجين. عبدالمجيد محمد أبو سرور مُحبٌّ للحياة ونشيط. سألته: «كم لديك من الأحفاد؟». تهلّلت أساريرُ اللّاجئ المُسنّ، وكأنّما شبابه قد تجدّد وصغُر عشرين سنةً! فأشارَ كما لو أنّه يقول: ومن سيعدُّهم؟ لم يكشف لي إذا كان قد فقد أرضًا مع احتلال اليهود للقرية، لكنّه فقد منزلًا حتمًا. بحسب إحصائيّة: بلغ عدد سكان (بيت نتيّف) في سنة ١٩٤٨، ٢.٤٩٤ شخصًا جميعهم عرب، وامتلكوا ٣٢.٧٦٢ دونمًا من الأراضي، زُرِعَ ثُلثاها بالحبوب. فقدوا كل شيء دون أدنى شك. «كان علينا الذّهاب للعمل في الأردن، في [محافظة] «مأدبا». زرعناها، ثمّ ذهبنا إليها سنويًا لأجل الحصاد».

استُبدلتْ ذكرياتُ الحرب، الآنَ، بذكريات إنشاء مخيّم للّاجئين بالنّسبة لعبدالمجيد محمد أبو سرور: «وصل الصّليبُ الأحمر بسرعةٍ عاجلة وأقام مخيّمًا به خيام كبيرة. تُؤي كل واحدة سبع عائلات، وإنْ كانوا من قرىً مختلفة. عندما هطلت الأمطار،

تضرّرت دعائم الخيام وتبلّلنا. أصبحتِ السّماء سقفنا والأرض موطننا. كما تساقط الثّلج في الشّتاء أيضًا. بقيتِ الخيامُ حتّى سنة ١٩٥٧، عندما بدأوا يبنون المنازل الأولى. كانت الحياة في الخيام شاقّة، على الأقل حتّى وزّع الصليب الأحمر حصص الطعام. ثم انتقلتْ إدارتها إلى الأمم المتحدة، فتحسّنت ظروفُنا بعض الشّيء. تحصّلتُ على عمل أيضًا. بدأتُ العمل في رام الله، حيث كنت قاطعًا للحجارة». استدار ليريني الحجارة التي بني بها المنزل خلفه. إنّها كتل من الصّخر وليست ملساء كريمية اللون. تحصّل عليها بطريقة تكسير معينة باستخدام الإزميل. إنّها ذات الأحجار الجميلة في القدس الجديدة التي بنتها «إسرائيل»، وفي أجمل الأحياء السّكنية في عمّان. استخدامُها دارج في المباني المحليّة. ينحت عبدالمجيد محمد أبو سرور الحجارةَ بأشكالٍ جميلة مختلفة. للضّفّة الغربيّة اليومَ نشاطٌ هامٌّ في معالجة الحجارة والرُّخام. تذكّرَ، فقالَ: «كان الوصول إلى رام الله أمرًا عسيرًا، لأنّنا أُجبرنا على الالتفاف حول القدس». كما يحدثُ الآنَ، لكن ليس بسبب نقص الطُّرق وعوائقَ في البنيةَ التّحتيّة كما في السّابق، بل لوجود الجدار ونقاط التّفتيش.

اللّجوء موضوعٌ متكرّر في الشّعر الفلسطيني. كتبَ سالم جبران(35) عنه في قصائده المُفعمة بالأسى والحنين إلى الماضي والتي كرّسها لموضوع المنفيين المرير. ولد في قرية في الجليل الأعلى سنة ١٩٤١، وكان طفلا سنة قيام دولة «إسرائيل». عملَ صحفيًا في صحفٍ مُهمّة. يقول في قصيدة «مُغنّي الرّيح والمطر»:

Telegram:@mbooks90

يمكنكم أنْ تقلعوا الشّجر

من جبلِ في قريتي

يعانقُ القمر

يمكنكم أنْ تحرثوا كلّ بيوت قريتي

فلا يظل، بعدها أثر

يمكنكم أنْ تأخذوا ربابتي وتحرقوها بعد أنْ

تقطعوا الوتر

يمكنكم

لكنّكم لن تخنقوا لحني

لأنّي عاشق الأرض مُغنّي الرّيح والمطر.

كما كتب قصيدةً غنائية أخرى بعنوان «لاجئ»، وهي رائعة إبداعيّة تمكّن فيها - ببضع جمل- من إيجاز معاناةِ مَن أُجبروا على العيش خارج حدودٍ غير مُسيّجة:

تعبر الشّمسُ الحدود

دون أنْ يُطلقَ في جبهتها النّارَ الجنود

ويُغنّي بلبل الدّوح، ضُحىً، في طولكرم

ومساءً يتعشّى وينام

بسلام

مع أطيار «كيبوتسات» اليهود

وحمار ضائع يرعى بخط النّار

يرعى في أمانٍ

وأنا، إنسانُكِ اللاجئ، يا أرض بلادي

بين عيني وآفاقك

أسوار الحدود.

يقول الأب بييرجورجيو، عند اقترابنا من مخيم عايدة، إنّ جميعَ مستوطنات اللّاجئين متشابهة بسبب تقارب المنازل، ولأنّها شُيّدت في قطع سكنيّة [بلوكات]؛ بُنيت على مراحل متتالية، ولزيادة عدد السّكّان وعدم إمكانيّة توسعة مناطق المخيمات، فإنّ الحلّ هو بناء أدوار إضافيّة في البنايات. اليوم طابقٌ، وبعد سنوات

طابقٌ وهكذا. هذه المدن الصَّغيرة، أو الأحياء الضَّخمة داخل المناطق المُتمدِّنة، شديدةُ التَّدهور، وتتوسَّع في أحياء، عليها أحيانًا جداريَّات قيِّمة؛ صور ورسومات للزَّعيم عرفات ولشباب ماتوا من أجل القضيَّة الفلسطينيَّة، يُطلق عليهم اسم «شهداء» وجزاؤهم جنَّة الله [جلَّ جلالُه]. لديهم مراكزُ ثقافيَّةٌ وفنيَّة ومسرحيَّة أيضًا. هذه المراكز تفيد في تعزيز الثِّقة في النَّفس، وتجاوز الإهانات التي يتعرَّضون لها يوميًّا. كما في مُخيَّمات اللَّاجئين الأخرى، يُنظم (مركز الرُّوَّاد للتَّدريب الثَّقافي والمسرحي)-وهو مركز ثقافي داخل «مُخيَّم عايدة»- الدَّورات والعروضَ المسرحيَّة الجوَّالة. ويعرض المركز رقصات فلسطينيَّة تقليديَّة بهدف التَّعريف بها والحفاظ عليها من الاندثار. على سبيل المثال، يُرحِّب «مُخيَّم بلاطة» في نابلس بضيوفه دائمًا برقصات دبكة طويلة، وتُعلَّمُ هناك رقصات أخرى حديثة أيضًا. إذا كانت البيانات صحيحة -إذ يصعب إجراء إحصاءات دقيقة- فإنَّ ٢٣ ألفَ شخص يعيشون في «مُخيَّم بلاطة»، مُكتظِّين في مساحة ٢.٥ كيلو متر مربع. نقصُ مساحة المعيشةِ واضحٌ.

المُخيَّم عمومًا - أكثر «حضريَّة» من غيره، وبعيدٌ جدًّا عن المدن الأخرى. به طريقان أو ثلاثة طرق رئيسة يمكن للمركبات المرور عليها، أمَّا باقي الطُّرق الفرعيَّة فهي أزقَّة ومساراتٌ ضيِّقة. تمر السَّيَّارات فيها واحدة تلو الأخرى وتكاد تلامس الجدران. لا يقعُ «مُخيَّم بلاطة» على منحدرٍ ما؛ لأنَّه امتداد لمدينة نابلس، مقرُّ أكبر الجامعات الفلسطينيَّة التي كانت ذات يوم المحرِّك الاقتصادي للضِّفة الغربيَّة. الكتابةُ على الجدران، وصور الشَّباب الذين فارقوا الحياة خلال قتالهم مشاهدُ معتادةٌ. عندما حان وقت الغداء، ازدحمتِ الشَّوارع المشمسة فجأة بحشودِ أطفالٍ، وهو عدد مثير للإعجاب، ساروا باندفاع مُبتهجين ويهتفون والحقائب المدرسيَّة على ظهورهم وهم يُغادرون المدرسة. لعلَّ هذا هو سبب تأسيس «مُخيَّم بلاطة» لنادي «الطُّفولة السَّعيدة»، وهو مؤسَّسة مُتعدِّدة المَهام تجمع أطفال المخيَّم بهدف تطوير إبداعاتهم وإبعادهم عن الشَّارع، وشغل أوقات فراغهم بأنشطة فنيَّة ورياضيَّة ودورات الكمبيوتر وإنتاج مقاطعَ الفيديو والصَّحافة.

تقعُ، على الجانب الآخر من الشَّارع، الكنيسةُ الأرثوذكسيَّة التي بداخلها «بئر

يعقوب»(36) والبالغ عمقها ٤٠ مترًا تقريبًا. يعود تاريخ الكنيسة إلى أربعة آلاف سنةٍ. ويوضِّح المسؤول عن الصّرح الدّيني أنّ هذا هو مكان اللّقاء الشّهير الذي رواه الإنجيل بين يسوعَ والمرأة السّامريَّة. للكنيسة التي يحرسها الأرثوذكس أهميّةٌ خاصّة باعتبارها مكانًا مُقدّسًا لكلٍّ من المسيحيين واليهود. وبما أنّ هؤلاء يذهبون للصّلاة كلَّ سبت، يُفرض حظر تجوُّل على سكّان «مُخيّم بلاطة» لضمان أدائهم لهذه العبادة أسبوعيًّا.

يتولّى مسؤوليّة التّرحيب بالضُّيوف في صالة الألعاب الرّياضيّة بالقاعة شباب ارتدوا الزّي التّقليدي؛ تنانيرَ واسعةً مُطرّزة بألوانٍ زاهيةٍ وقبّعة على الرّأس. يقفزون حسب إيقاعات تُعزَف على أدوات موسيقيّة عربيّة تقليديّة زمنًا طويلًا. يُشتق اسم الرّقصة من الفعل العربي «يدبك» ويعني: قرع الأرض بالرِّجل أو بغيرها لإحداث جلجلة وارتجاج. الدّبكة مصحوبة بالأغاني والموسيقى. تماهى الرّاقصون مع الإيقاع بالقفز وقرع أرجلِهم بالأرض. يتجمّع الرّاقصون في مجموعاتٍ، من أربعة أو خمسة أشخاص إلى عشرة، وقد يتجاوزون هذا العدد. يُرتّب الرّاقصون أنفسهم في دوائر أو أنصاف دوائر ويتحرّكون في صفّ، كلٌّ منهم يقبضُ بيديه على يد من قبله ويد من يليه. يتحرّكون في دائرة؛ عكس عقارب السّاعة دائمًا. ينقّلون نظراتهم حسب المعزوفة للأمام أو نحو مركز الدائرة. الأوّل في الصّف هو الأكثر خبرةً عادة وهو القائد، أمّا الباقون فيحاكونه. يصحبهم دائمًا عزف لآلات موسيقيّة تراثيّة عربيّة؛ «الدّربوكة» أبرزُها، تلك الطّبلة الرّفيعة عند المنتصف والأعرض في الأعلى. نحن [الإيطاليّون] نعرفها جيّدًا لأنّ فرقَ روكٍ كثيرةً تستخدمها. تُنطق «دزبكِ»، وهي ليست فلسطينيّة فقط، إذ أنّها رقصة تراثيّة شائعة في بلدان عدّة من الشّرق الأوسط، وتحديدًا: لبنان، وسوريا، والعراق. إنّها مرتبطة بلحظات من ذكريات المجتمع، وتعبّر عن وجدانه وتاريخه وثقافته كما هو الحال مع كل رقصة تراثيّة. مرّت الدّبكة بذات التّطوّر الذي مرّ به الشّعر والأدب. تُعبّر هذه الرّقصة عن حبّ الفلسطينيين لأرضهم ووطنهم، كما تُعبّر عن اتّحادهم بعضهم ببعضٍ، وعن مشاعر الفرح. تُرقص في المناسبات السّعيدة: كالأعراس، والولادات، وأيّام الحصاد. في العقود الماضية، أصبحت رمزًا وهُويّةً وتأكيدًا عِرقيًّا. يسبقُ الموسيقى عادة قراءة لقصيدة (موّال) له

إيقاع وكلمات لها معنى مزدوج، مهداة إلى بلد المُغنّي، وحبّه، وألمِه، وأحيانًا تُرتجل الكلمات حسب الظُّروف. تستمرُّ هذه الرّقصة نصف ساعة أو ساعة كاملة، في تصاعد مستمر، ومع ذلك لا يبدو على الرّاقصين الإنهاك. خلال الرّقصة، يتبادل النّاس الدّور الرّئيس، لأنّ لا قواعدَ ثابتة للرّقصة؛ ككلّ الرّقصات التّراثيّة، والارتجالُ هو سيّد الموقف. الارتجال جزء مُكمّل وضروري في الموسيقى العربيّة ويتنوّع حسب المكان والزّمان والحضور. سيندمج المرءُ معها حتمًا، فيتمايل جسدُه مع الإيقاع ويضربُ رجله بالأرض دون إدراكٍ. هذا ما حدث معي في (مخيّم بَلاطة).

يُعتبر الجدار ضربة قاسية جدًا للحد الأدنى من فرص العمل التي اعتمد عليها اللّاجئون في السّابق، كما هو الحال في «مُخيّم عايدة». يتحدث مديرُه العام أبو سرور بهدوء، لكن بنبرةٍ ثقيلة للغاية، ككلّ شخص في فلسطين -سواء أكان مسلمًا أم مسيحيًا، أرثوذكسيًا أم كاثوليكيًا- عن كونه احتلالًا صريحًا. قابلناه أمام مكتبهِ المرتّب لإدارة المخيم، في مبنىً صغيرٍ؛ شخصيّة مميّزة وطليق اللسان في اللغة الإنكليزيّة، مثل كلّ الفلسطينيين المُتعلّمين. بعدَ أنْ عرض علينا مقطع فيديو يوضّح أنشطة المُخيّم، وخاصّة عن مركز (الرُّواد للتّدريب الثّقافي والمسرحي)، استعرض الإحصاءات. ناقشناه قليلًا حول الأرقام. قال إنّ عدد سكّان «مُخيّم عايدة» يبلغ ٥٨٠٠ نسمة تقريبًا، نزحوا من ٤١ قريةً من أصل ٥٣٤ قرية «احتلها ودمّرها الصّهاينة منذ سنة ١٩٤٨ فصاعدًا». عبالفتاح في الخمسين من عمره، شابُّ المظهر، وشعره أسود. إنّه يعرف ما يفعله؛ ففي نهاية المطاف ليس من السّهل كسب لقمة العيش في مكانٍ كهذا، ناهيك عن إدارةِ مسؤوليّاته. قضى حياته كلها في المخيم ولعلّه سيمضي باقي حياته هنا. في الواقع، لا يُبشّر الشّرق الأوسط بأي تغيير، أمّا الجانب «الإسرائيلي» فيريد تجاوز القضيّة الفلسطينيّة؛ قمعَ العنف أو قاربَ على ذلك من خلال الجدار، ثمّ نقلَ الانتباه إلى مشاكل أخرى كالتّهديد الإيراني وتطوّرات «الرّبيع العربي» في الدّول المُجاورة أو بإثارة القلق المحلّي بخصوص القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة الدّاخليّة. وبحسب عبدالفتّاح فإنّ الأمور قد ساءت: «أتذكّر في ستينيات القرن الماضي وجود مراحيض عامّة وثلاث أو أربع نقاط لإمدادات المياه، التي ليس لها أثرٌ اليومَ».

الآنَ ٤٥٪ من سكّان المُخيَّم تحت ١٥ سنةً، وما يزيد قليلًا عن نصف العدد الإجمالي من النّساء. «أكثر من ٧٠٪ من اللّاجئين الذين في سن العمل عاطلون، أمّا العاملون فيعملون في مؤسّسات تُقدّم الخدمات؛ أي في المدارس والأونروا (ملاحظة: وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللّاجئين الفلسطينيين، وهي وكالة أُنشئت خصيصًا للّاجئين في فلسطين [المُحرّر الإيطالي]). أطول فترة لجوء منذ حوالي ٦٥ سنةً، وسيبقون على هذا الحال فترة طويلة. قد يعملون في مشاريع مُؤقّتة، لا سيّما مشاريع المُنظمات غير الحكوميّة أو في الإدارة العامة للسُلطة الفلسطينيّة، والشّرطة، والصّحة، والتّعليم، والمكاتب». إذن، فالاقتصاد مدعومٌ قطعًا، ولكنّه ليس خيارًا. يوضّح عبدالفتاح بقوله: «نحن حالة إنسانيّة طارئة بالنّسبة للأونروا. لكنّنا لا نريد مساعداتٍ إنسانيّة. نريد معالجة مشكلتنا سياسيًا، لا عن طريق الأعمال الخيريّة».

في الواقع، يوجد في (مخيم عايدة) عدد من رُوّاد الأعمال النّاشطين في مجالات البناء والنّجارة والكهرباء. لبعض الأشخاص أعمالهم الخاصّة في البقّالات. هناك عشرون بقالة في أنحاء المُخيَّم، وأربعة محلّات حلاقة، ومطعمين صغيرين. وثمّة ٥٠ امرأة وفتاة يعملن في التّطريز والخياطة. يتابع عبدالفتّاح حديثه: «وصلت البطالة إلى أكثر من نصف اللّاجئين في سن العمل منذ إقامة الجدار، والسّبب الأهم عائد إلى الصّعوبة الهائلة في الوصول إلى سوقِ العمل «الإسرائيلي» الذي كان المصدر الرّئيس للتّوظيف، وخاصة في مجال الإنشاء. يملك الآن حوالي ٥٠ شخصًا تصاريحَ دخول منتظمة، بينما كان عددهم تسعمائة قبل عشرين سنةً. إذا كان متوسّط دخل العامل في «إسرائيل» حوالي خمسة آلاف شيكل (ألف يورو تقريبًا)، فإنّ المتوسط في المخيَّم يبلغ حوالي ١٥٠٠ شيكل (٣٠٠ يورو). المهاجرون إلى الخارج؛ الأردن أو أوروبا أو الولايات المتحدة عددهم أكثر بكثير؛ أمّا من ظلّوا، فيعملون بأجرٍ زهيد في مكاتب الإدارة العامة الفلسطينيّة ومدارس الأمم المتحدة والمشروعات المؤقّتة للمُنظّمات غير الحكوميّة. وعدد قليل منهم لديه ورشة عمل أو متجر صغير».

أُنشئت «الأونروا» خصيصًا للتّعامل مع حالة اللّاجئين الفلسطينيين؛ حالة فريدة من نوعها وحجمها في العالم. تأسّست كمنظمةٍ مؤقتة، وكيّفت نشاطاتها مع احتياجاتِ اللّاجئين وتوفير السّلع والخدمات الأساسيّة (الطبيّة والاجتماعيّة

والتّعليميّة) للّاجئين في الضّفة الغربيّة وغزّة ولبنان والأردن وسوريا. هناك لاجئون آخرون: حوالي ٣٥٠ ألفًا في المملكة العربيّة السّعوديّة والعراق ومصرَ، لكنّهم من اختصاص «المفوضيّة السّامية للأمم المُتّحدة لشؤون اللّاجئين». «الأونروا» عملاقٌ بيروقراطي، ورؤية ظروف مخيمات اللّاجئين الفلسطينيين تثير بعض التساؤلات حول فاعليتها. يقول عبدالفتّاح: «منذ سنة ١٩٩٦، حدث انخفاض كبير في خدمات «الأونروا» في فلسطين، إذ ضُغط عليها بعد وصول السلطة الفلسطينية، لإيقافها نهائيًا. قُسّمت حصص الإعاشة التي كانت توزع سابقًا على كل شخص، على ستة أفراد. أمّا الآنَ فحصصُ الإعاشة مخصّصة لحالاتٍ حرجة للغاية؛ لعائلات تتكوّن من ستّة أفراد أو أكثر، وجميعهم عاطلون عن العمل. وخفّضت المساعدات الطبية إلى الصّفر تقريبًا، ولا تُجرى العمليات الجراحية إلّا في حالات الضّرورة القصوى وبعد الحصول على تصاريح خاصّة من «الأونروا»».

أمّا بالنّسبة للمدارس، فهناك مدرستان للسّكان البالغ عددهم ٥.٨٠٠ شخص، وكلتاهما تدارانِ من قبل «الأونروا». يتابع عبدالفتّاح حديثه: «تقع إحداهما داخل حدود المخيّم، وتستقبلُ الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة. أمّا الأخرى، فتقعُ على أرضٍ مجاورةٍ مستأجرةٍ، وهي مدرسة مختلطة للأعمار من ستة إلى عشرة أعوام، ثمّ تُخصّص للإناث اللائي في الخامسة عشرة من أعمارهن فقط. تضمُّ المدرسة المختلطة نحو ١٦٠٠ طالب، ومدرسة البنين نحو ٥٠٠ طالب». إنّهم هؤلاء الأطفال الذين يمكن رؤيتهم يركضون بأعداد كبيرة في جميع مخيمات اللّاجئين حاملينَ الحقائب المدرسيّة على أكتافهم، يبتسمون ويلعبون كما لو كانوا في أي حديقة نظيفة بدولة غربية. أكثر ابتهاجًا في الواقع.

«ثم هناك ثلاث مدارس رياض أطفال تستقبل ٢٠٠ طفل تقريبًا، تتراوح أعمارهم بين ٤ -٦ سنوات»، يضيف عبدالفتاح، هادئًا دائمًا، بكلماتٍ أشبه بطعنات سكّين، تُصدر أحكامًا قاطعة بلا استئناف. علاوةً على ذلك، فإنّ وضع اللاجئين هو الأصعبُ بين الفلسطينيين. الانطباع هو أنهم يعيشون في قفصٍ بلا قضبان، فُقد مفتاحه منذ سنوات عديدة. أسأل كيف غيّر الجدار الفاصل فرصَ العمل للأشخاص في المخيّم. ويقول: «إنّ القيود المفروضة على حريّة التّنقل بسبب الجدار ونقاط التفتيش قد

قلّصت من إمكانيّة العمل والتنقُّل.

يعاني النّاس العاديون ورجال الأعمال معاناةً شديدة من تدهور الوضع الاقتصادي. وقد غرقَ السوق بالمنتجات «الإسرائيلية» القادمة من المستوطنات اليهوديّة بشكلٍ رئيس، إضافة إلى السّلع الدّوليّة، ممّا أضرَّ بالإنتاج الفلسطيني المحلّي. ومنذ محاصرة المخيّم من جهتي الشّمال والشّرق بالجدار، عانى الجميعُ من قلّة فرص العمل خارج الجدار، فضلًا عن صعوبة التّواصل بين العائلاتِ من جانبٍ لآخرَ، ومن الصّعب أيضًا الالتفاف حولَ الجدار، ممّا أدّى إلى ارتفاع أسعار السّلع بشكلٍ مهول».

لنعد إلى عبدالمجيد محمد أبو سرور المسنّ. يستمر الأب بيرجيورجيو في التّرجمة، ولكنه لا يستطيع مقاومة إغواء طرح سؤالٍ عليه: «كيف تدبّرت أمرك معك أحد عشر طفلًا؟ كيف عشت؟». هو أيضًا متأثّر بالقصّة الحيّة لشاهدٍ عاش عقودًا داخل مخيّمٍ للّاجئين. تدب حيويّة في الرجل المسنّ؛ إنّه لا يتحدث عن تلك السّنوات كما لو كانت فترات معاناة، ربّما لأنّها تمثل شبابه، أو ربما لأنّها كانت أوقاتًا أكثر فقرًا ولكنها في بعض النواحي أقلّ سوداويّة من وقتنا الحالي، حين كان لا يزال هناك بصيصُ أملٍ. ويقول: «كنّا نأكل القليلَ جدًا، وخاصّة التّمر. وصلت إلى المنزل وكنت قد أحضرت عشرة أكوام من التّمر وفي يوم واحد اختفت. لقد تزوجت هنا. مات أحد أبنائي هنا، وارتدينا ما كان متوفّرًا. تلكَ مشيئةُ الرّحمن». تخيّل ذلك ليس صعبًا. يتابع: «في سنة ١٩٦٧، بعد الحرب، انسحبَ الأردنيّون ودخلَ اليهود هنا. كانت هناك غارات جويّة في البداية، ثمّ وصلوا مع الجيش. ما عاد للمخيّمات وجود بعد ذلك؛ بل بيوت. قالوا لنا: «نمنحكم أربع ساعات، خذوا كلّ أمتعتكم وتوجّهوا نحو أريحا، وإلا فإنّنا سنهدم بيوتكم». غادر من غادر وبقيَ من بقي؛ خاصّة من لديهم أطفالٌ كُثر مثلي. وكان معنا رئيس بلدية بيت لحم السّابق الذي طلب منّا عدم الهروب، ثمّ طلب التّحدث إلى «الإسرائيليين». وصلَ جنود آخرون إلى «قبر راحيل»(37)، وجمعوا المصلّين وأمروا الجميع بتسليم أسلحتهم، ولكن من بينهم كان هناك شخص أعقلَ من الباقين. أتذكر أن جنديًا أقبل نحوي وقال: «لا تغادرا! خذ راية بيضاء اللون وضعها على النّافذة». ففعلت ذلك، ثم لم يعودوا أبدًا». سكت. لقد حان وقت الصّلاة. لا يزال هناك الكثير ليقوله. عبادة مهمّة، ويجب أن يرحل عبدالمجيد محمد أبو سرور لأدائها.

Telegram:@mbooks90

وافق على التقاط صورة قبل أنْ نفترق. أغلق باب المنزل وانطلقَ نحو مقصدِهِ، منحني ظهره بعض الشَّيء، باطمئنان. أراقبه سائرًا على ساقيه غير المتَّزنتين نحو المسجد تلبيةً لنداء المؤذن، ولا شك عندي أنَّ جنَّة الربِّ تستحقُّ ذلك.

ملحق صور

١. العيش والعمل في إطار نقاط التّفتيش

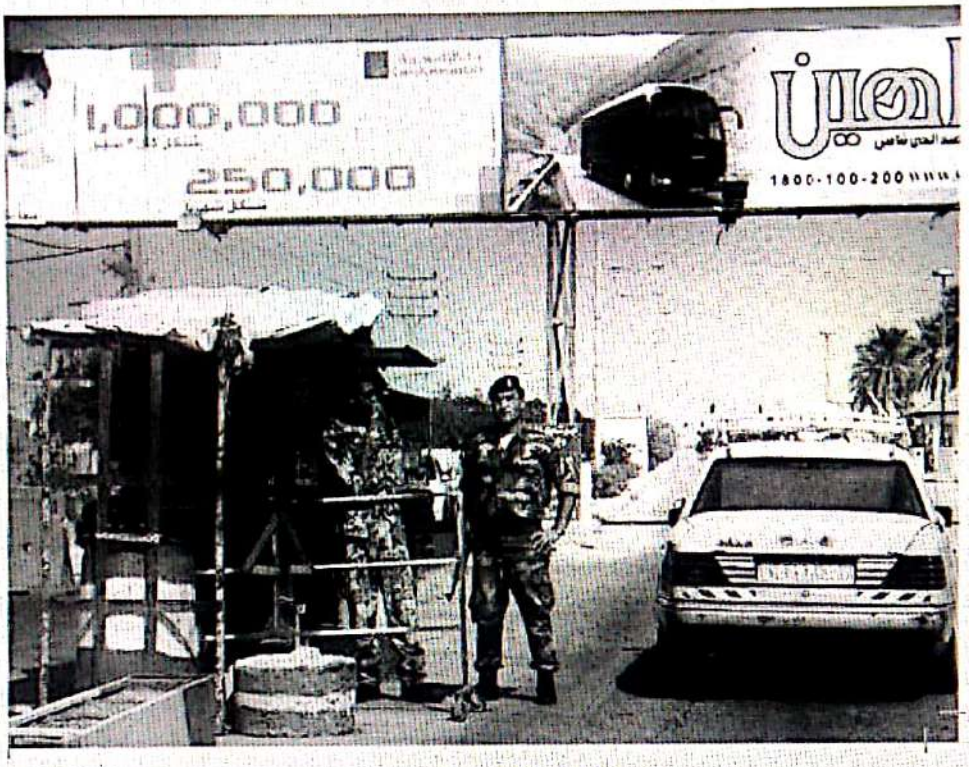

للقيود الصَّارمة الناجمة عن الحصار والمفروضة على عبور الأشخاصِ والمركبات - خاصة البضائع- عواقبها الوخيمة على الاقتصاد الفلسطيني. في الصورة أدناه أحد الحواجز الفلسطينيّة النَّادرة. (تصوير: جوڤانّي ڤيرغا).

طابور عند حاجز التفتيش «الإسرائيلي» في قلنديا؛ رام الله. (تصوير جوڤائي ڤيرغا).

بوابة أخرى على نفس الحاجز. (تصوير: جوڤائي ڤيرغا).

٢. العيش والإقامة في فلسطين

الجدار ملاصق للمنزل والمتاجر. قسّمت «إسرائيل» بيت حنينا إلى قسمين: قسم شرقي تابع لبلدية القدس «الإسرائيلية» وسُمّيت (بيت حنينا الجديدة)، أمّا (بيت حنينا التّاريخيّة) وقسمها الغربي فألحقَ بمناطق الضّفة الغربيّة. وعند بناء الجدار في الضّفة الغربيّة بقيَ هذا القسمُ خارج الجدار. (تصوير: جوڤانّي ڤيرغا).

يقع الجدار على بعدِ أمتارٍ قليلة من المباني السكنية على جانبي بيت حنينا. على يمين الجدار الجانب «الإسرائيلي»؛ وعلى يساره الجانب الفلسطيني. (تصوير: جوڤانّي ڤيرغا).

ويحيط الجدار بالطريق الذي يربط القدس برام الله. نشاهد يمين هذه الصُورة، بنايات الجانب الفلسطيني في (بيت حنينا). (تصوير: جوڤائي ڤيرغا).

العيش والإقامة في مستوطنة يهوديّة: المنظر البانورامي السّاحر الذي تتمتع به مستوطنة أرييل. (تصوير: جوڤائي ڤيرغا).

في أربيل مرَّة أخرى، مشهد أنيقٌ من حي سكني. في الصُورة: امرأة يهودية من مستوطنة أربيل ترتدي الملابس المحافظة النموذجية، بصُحبة أسرتها الكبيرة. (تصوير: جوڤائي ڤيرغا).

فيلات على طراز مساكن أوروبا الشّماليّة، لها أسوار وأسقف مائلة في مستوطنة أرييل. (تصوير: جوڤانّي ڤيرغا).

٣. العَيش تحت وطأة الحرب

خلال عملية «الدّرع الواقي» سنة ٢٠٠٢، اقتحم الجيش «الإسرائيلي» بيت لحم بمركبات ودبابات مجنزرة، ممّا تسبب في أضرار ماديّة جسيمة. ووفقًا لشهاداتِ مباشرة، فإنّ التّعويض عن الأضرار، بعد مرور أكثر من عشر سنوات، لم يصل إلّا بشكل محدود. (صورة من Getty image).

أهالي يافا يهربون بالقوارب سنة ١٩٤٨ بعد قصف المدينة. (تصوير [البروفسور] عيسى نخلة. أخذت من *Encyclopedia of the Palestine Problem* [موسوعة القضيَّة الفلسطينية، وقد صدرت باللُّغة الإنكليزيَّة سنة ١٩٩١، وتقع في ١١٣١ صفحة. [المترجمة]).

أنقاض حي سكني. «حي المنشية»(38) في يافا على الأغلب. (الصُورة مأخوذة من تصوير [البروفسور] عيسى نخلة، ومأخوذة من المصدر السَّابق).

٤. لم تُروَ الحربُ بشكلٍ كاملٍ...

صورة فندق الملك داود في القدس، الذي دمَّره هجوم نفَّذته (عصابة شتيرن) اليهودية المتطرفة سنة ١٩٤٨. وسقط فيه ٩١ قتيلًا. (المصدر: *Matson collection* [مجموعة صور تاريخيَّة متعلِّقة بالشَّرق الأوسط]).

جهود الإغاثة في فندق الملك داود بعد الهجوم. (المصدر: *Matson collection*).

الاعتداء على قرية (دير ياسين) سنة ١٩٤٨ على الأرجح. (تصوير عيسى نخلة، من *Encyclopedia of the Palestine Problem*).

٥. العَيشُ في المخيّمات

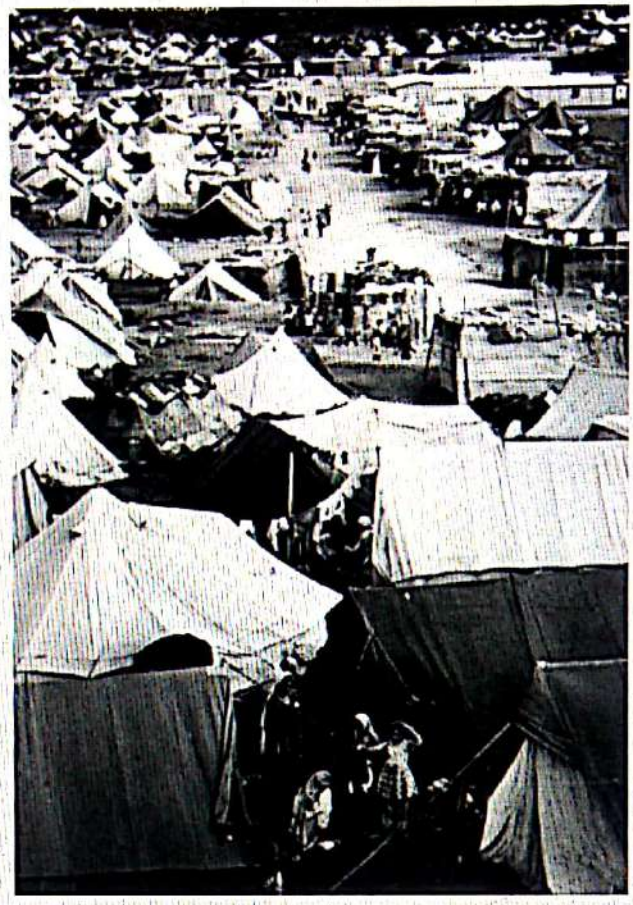

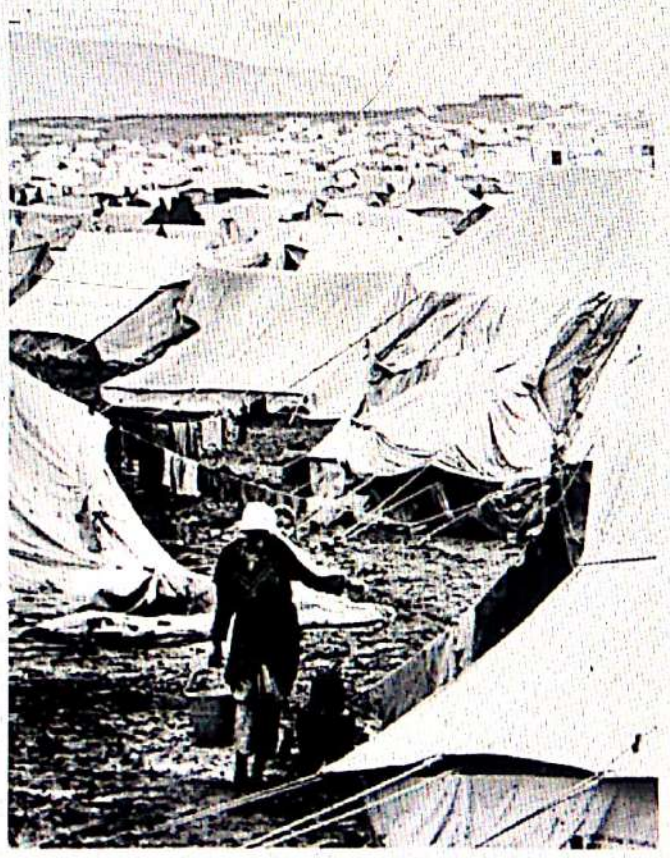

الصُورتان السّابقتان: في مخيّم لاجئين فلسطيني. التقطتا سنة ١٩٤٨. (المصدر:

الأونروا).

عبدالمجيد محمد أبو سرور (مواليد ١٩٣٣). لاجئ منذ ١٩٤٨ في «مخيَّم عايدة» ببيت لحم. (تصوير: جوڤانّي ڤيرغا).

المؤلف في سطور

• مُراسل حُر. غطّى للصُحف الإيطاليّة بعض أهم الصّراعات حول العالم، في: أفغانستان (٢٠١٠-٢٠١٤)، ودول الشّرق الأوسط؛ الضّفة الغربيّة (الأراضي الفلسطينيّة) على وجه الخصوص، وسوريا خلال الحرب الأهليّة.

• تحصّل على جائزة في الصّحافة نظير تقاريره من مخيّم الزّعتري (الأردن) عام ٢٠١٢، وعلى تكريم من تجمّع السّوريين في غازي عنتاب (تركيا) عام ٢٠٢٠.

• نشر كتابين: العيش في فلسطين: بين اللّوح، والجِدار، والإنجيل، والقرآن (دار إنفنيتو)، وكتاب: رحلة مع الجهاد في أفغانستان وسوريا: تقرير من الجبهة (دار ألبيني ستوديو).

المترجمة في سطور

مترجمة أدبيّة وكاتبة تُترجم عن اللُّغتين الإنكليزيّة والإيطاليّة. تُعتبر أوّل كويتيّة تُترجم كتابًا عن الإيطاليّة في دولة الكويت. تَرجمت حتّى الآنَ تسعة عشر كتابًا في مجالات مختلفة: كالسِّيَر الذّاتيّة، والأوبرا، والقصّة القصيرة.

- أوّل كويتيّة وخليجيّة تُترجم كتابًا عن اللُّغة الإيطاليّة.

- أوّل وكيلٍ أدبي في دولة الكويت.

- أوّل مُترجم كويتيّ يُرشح للقائمة الطويلة في فئة التّرجمة لجائزة الشّيخ زايد ٢٠٢٣، عن كتاب (لماذا نقرأ الأدب الكلاسيكي؟) للكاتب الإيطالي: إيتالو كالفينو.

---

(1) أبو القاسم المعتمد على الله محمد بن عَبّاد: ثالثُ وآخر ملوك بني عَبّاد في الأندلس قبل أنْ يقضي المرابطون على إمارته. اهتم بالشعر ومجالسة الشُّعراء كابن زيدون، وابن لبانة. أسره ألفونسو السّادس ملك قشتالة المعتمد، ونفاه إلى مدينة أغمات في المغرب حيث توفي أسيرًا بعد أربع سنوات. [المُترجمة].

(2) تُعرف القصيدة كذلك باسم (زيتا)، وهو اسم قرية فلسطينية في الخليل، دُمّرتْ إثر نكبة ١٩٤٨. [المُترجمة].

(3) توفي في صفد سنة ٢٠١٤. [المترجمة].

(4) [١٩٠٩-١٩٨٠]، كنيته (أبو سلمى)، وأشهر ألقابه (زيتونة فلسطين). شاعر وأديب وكاتب وسياسي فلسطيني. أقالته السلطات البريطانيّة من مهنة التدريس بسبب قصيدة نشرتها مجلّة الرّسالة القاهريّة بعنوان «يا فلسطين!»، لكن صديقه الشّاعر (إبراهيم طوقان) دبّر له عملًا في دار الإذاعة الفلسطينيّة، واستمرّ ضمنَ جهازها الإعلامي حتّى استقال من عمله. له عدّة دواوين شِعرية ومسرحيات ومؤلّفات نقديّة. [المترجمة].

(5) شاعرٌ فلسطيني - أردني. ولد في بيت عنان قرب القدس. عمل مدرّسًا بمدارس وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللّاجئين الفلسطينيين (الأونروا) في عمّان. يعمل محرّرًا وكاتبًا في منشوراتٍ كثيرة، كما فازَ بأكثر من جائزة رفيعة المستوى في الأردن. صدرتْ له أكثر من

تسعة دواوين شِعريّة، منها ديوان (الخروجُ من الرّماد) ١٩٨٠، و(حيفا تطير إلى الشقيف) ١٩٨٢. [المترجمة].

(6) وقعت (معركة الشّقيف) بين جيش الاحتلال وفصائل منظمة التّحرير الفلسطينيّة، في ٦ يونيو ١٩٨٢ بقلعة الشّقيف، وهي من أولى معارك الاجتياح «الإسرائيلي» للبنان، ونتج عنها احتلال القلعة التي شيّدها الرُّومان، وزاد الصليبيُّون في أبنيتها، ورمّمها فخر الدّين الثّاني. [المترجمة].

(7) تصريح لجريدة (معاريف) في شهر أكتوبر من سنة ٢٠١٣. [المترجمة].

(8) [١٩٢٥-٢٠١٩]، سياسي «إسرائيلي» عمل وزيرًا للدّفاع ثلاث مرّات، وشغلَ مناصب عليا أخرى.

(9) صحفي ومراسل فرنسي ولد سنة ١٩٤٤. الحديث هنا عن كتاب (جدار في فلسطين) الذي صدر سنة ٢٠١٠ باللغة الإنكليزيّة. [المترجمة].

(10) إحدى بلدات محافظة القدس، تقع شمال غرب مدينة القدس. يحدُّها من الشرق الرام ومن الغرب الجيب، ومن الجنوب بيت حنينا البلد. تُقسَّم أراضيها إلى منطقتين (ب) و(ج). السُّلطة الوطنية الفلسطينيّة مسؤولةٌ بشكلٍ عامٍّ عن (ب) ودولة الاحتلال مسؤولة بشكل كامل أمنيًا، أمّا (ج) فهي تحت السّيطرة الكاملة لحكومة الاحتلال؛ أمنيًا وإداريًا. [المصدر: موسوعة القرى الفلسطينية].

(11) أكبرُ بلدات القدس، يعود تاريخها إلى الحقبة الكنعانيّة. قسّمها الجدار العازل إلى بلدتين: بيت حنينا القديمة التّابعة للضّفة الغربيّة، وبيت حنينا الجديدة التي تتبع «إسرائيل». [المترجمة].

(12) قرية من القرى الكنعانيّة القديمة، تقعُ شرق مدينة رام الله. أوّل من سمّاها بهذا الاسم هو صلاح الدّين الأيوبي في القرن الثاني عشر الميلادي. احتُلت خلال حرب سنة ١٩٦٧.

(13) حي من الأحياء الأربعة الكبرى في مدينة القدس الشرقيّة، يقع داخل أسوار مدينة القدس؛ أمّا الأحياء الثلاثة الأخرى فهي: اليهودي، والإسلامي، والأرمن. يضمُّ ٤٠٪ من الأماكن المقدّسة المسيحيّة. [المترجمة].

(14) مدينة «إسرائيلية» قامت على أراضي قرية (أم خالد) الفلسطينيّة بقضاء طولكرم. [المترجمة].

(15) سعاد العامري (١٩٥١-): معماريّة وكاتبة فلسطينيّة من يافا. صدرت لها روايات شهيرة

تُرجمت إلى لغات كثيرة، منها: شارون وحماتي (٢٠٠٤)، مراد مراد (٢٠١١)، غولدا نامت هنا (٢٠١٤)، دمشقي (٢٠١٩)، بدلة إنكليزيّة وبقرة يهوديّة (٢٠٢٢). [المترجمة].

(16) مؤسّسة لحفظ الذّاكرة الجمعيّة الفلسطينيّة، تأسّست سنة ١٩٩١ من خلال مشاريع تُوثّق وتُحيي المواقع المعماريّة التُّراثيّة على امتداد الضّفّة الغربيّة وقطاع غزّة. أصدرتْ ثلاثة مُجلّدات تحوي تاريخًا مُفصّلا وخرائطَ وصورًا لما يقرب من ٤٢٠ قريةً في ستّ عشرة محافظةً. [المصدر: موقع المركز الإلكتروني].

(17) مقتبس من رواية (شارون وحماتي). [المترجمة].

(18) قانونٌ سُنَّ في مارس من سنة ١٩٥٠ ويُعرّف كلّ من هُجّر أو نزحَ أو ترك حدود فلسطين المُحتلّة حتّى نوفمبر من سنة ١٩٤٧، ولأيّ سببٍ كانَ، على أنّه غائب. [المترجمة].

(19) المدينة الثالثة على قائمة المدن الفلسطينيّة التي أدرجتها (الهاغاناه) بهدف الاحتلال. أعلنتْ اللجنة القوميّة يافا مدينةً مفتوحة بداية مايو من سنة ١٩٤٨ بعد تعذُّر الدفاع عنها. [المصدر: مؤسسةِ الدّراسات الفلسطينيّة].

(20) أرض البرتقال الحزين، غسان كنفاني، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط٤، ١٩٨٧، ص ٧٣.

(21) تصويب: ثلاث سنوات حسب المذكور في المادة ٨٦ من قانون الأراضي العثماني. [المترجمة].

(22) أو العيزرية. [المترجمة].

(23) بمعنى: يَعبرون أو يمرُّون. تأسّست سنة ١٩٩٠، وتبلغ مساحتها ١٣٨٠ دونمًا. [المترجمة].

(24) أو المرسلون الفرنسيسكان في خدمة الأرض المقدّسة: مجموعة دينيّة تنتمي إلى الكنيسة الرّومانية الكاثوليكيّة، وتُعرف باسم رهبنة الإخوة الأصاغر الفرنسيسكان. [المترجمة].

(25) في شهر يناير من سنة ٢٠١٠. [المترجمة].

(26) أو (كهف البطاركة)، ويُعرف عند اليهود باسم (مغارة المكفيلة). [المترجمة].

(27) يُشير الكاتب إلى مذبحة (الحرم الإبراهيمي) التي نفذها طبيب يهودي يُدعى باروخ

استُشهِدَ منهم ٢٩ وجُرح ١٥٠ مصلّيًا، قبل أنْ يهاجمه ويقضي عليه باقي المصلّين. [المترجمة].

(28) الكيبوتس: مستوطناتٌ زراعيّة مُستقلة إداريًا عن السُلطات المحليّة، وهي كيان مقتصر على المجتمع «الإسرائيلي» فقط؛ تعتمد الاشتراكيّة التّامّة بين أعضائها. [المترجمة].

(29) منظمةٌ عسكرية صِهيونية أسّسها البولندي أبراهام «يائير» شتيرن. عرفت السّاحة الفلسطينيةُ نشأة العديد من المُنظمات الصّهيونية القتالية. منظمة معروفة على نطاق واسع باسم عصابة (شتيرن) وتعد من أكثر الميليشيات الصّهيونية شراسةً وشهرة. كانت (شتيرن) تفضل التحالف مع ألمانيا النازية بدلًا من بريطانيا. [المترجمة].

(30) كونت فولك برنادوت (Folke Bernadotte): ديبلوماسي سويدي ترأس الصليب الأحمر السويدي. ولد في ٢ يناير ١٨٩٥ باستكهولم واغتالته عصابة (شتيرن) في ١٧ سبتمبر ١٩٤٨ بالقدس. [المترجمة].

(31) لورد موين (Lord Moyne): سياسي ورجل أعمال إنكليزي-أيرلندي. كان وزيرَ الدولة البريطاني في الشّرق الأوسط حتّى نوفمبر ١٩٤٤، عندما اغتالته عصابة (شتيرن). [المترجمة].

(32) يُشير الكاتب إلى عملية (كفار عتصيون) التي نفذتها القوات العربية في ١٢ مايو ١٩٤٨. [المترجمة].

(33) كان الدكتور سرجيون يعالج أهل (بيت نتيف)، ويلقّبُ من قبلهم بالخواجا سروجي. وكانت له عيادة في قرية (بيت جبرين)، حيث يأتي إلى القرية مدّةَ يومين من كلّ أسبوعٍ لعلاج الأهالي الذين كانوا يتوخّون الحذر منه، ويعاملونه باحترامٍ في آنٍ معًا. لقد اعتقدَ الأهالي وقتذاك أنّ دكتور الجامعة هو نفسه الطبيب. [المصدر: موقع فلسطين في الذّاكرة]، [المترجمة].

(34) سمّاها الرُومان (بيت ليتيفا)، وكانت مركزًا لأسقفيّة مسيحيّة. تُعتبر موقعًا أثريًا، وتشتمل على كهوف وصهاريج وأرضيات من الفُسيفساء وآثار طريق رومانيّ. أنشئت فيها أربعُ مستوطنات منذ سنة ١٩٤٩. [المصدر: موسوعة القرى الفلسطينيّة]. [المترجمة].

(35) شاعر فلسطيني (١٩٤١- ٢٠١١)، من فلسطينيي ١٩٤٨ أو عرب «إسرائيل». ولد بقرية البقيعة في الجليل، وعاش ومات في مدينة النّاصرة.

(36) بئر يعقوب أو بئر السّامريّة: هي بئرٌ في منطقة بلاطة البلد على أطراف مدينة نابلس. يُعتقد أنّ عيسى (عليه السلام) قد شربَ منها عند مروره بالسّامرة في طريقه من =

= القدس إلى الجليل. بُنيت فوقها كنيسةٌ بأمر من الملكة هيلانة والدة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين في القرن الرّابع للميلاد، وبقيتْ الكنيسة على حالها حتى تهدّمت سنة ١٠٠٩ للميلاد خلال العهد الفاطمي، فأعاد الصليبيّون إعمارها سنة ١١٥٤ للميلاد، ولكنّها هُدّمت بعد خروجهم. تقوم في الموقع اليومَ كنيسةٌ حديثةٌ. [المترجمة].

(37) توفيت (راحيل) زوجة النبي يعقوب [إسرائيل عند اليهود] حين اشتد ألم الولادة بها أثناء إنجابها لابنهما بنيامين (شقيق يوسف عليه السّلام الأوحد من أمّه راحيل)، فدفنها زوجها في مدينة بيت لحم بفلسطين. تحوّل قبر راحيل فيما بعدُ إلى مسجد اسمه «مسجد بلال» نسبة للصّحابي بلال بن رباح. هذا المكان مقدّس عند اليهود والمسيحيين والمُسلمين. [المترجمة].

(38) حيٌ سكنيٌ فلسطينيٌ على شاطئ البحر، من أكبر أحياء يافا. احتُلّ الحيُ بعد أسابيع من احتلال (دير ياسين) وذبح سكّانها. شُيدت، على أنقاض «حي المنشية»، مدينة سياحيّة تخدم سكّان «تل أبيب» والمناطق المجاورة. [المصدر: موسوعة القرى الفلسطينيّة]. [المترجمة].